



لجليات
ادبية 12

البشروش

السيد الخميسي

رواية

البشروش

السيد الخميسى

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة تجليات أدبية

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبوالمجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

مدير التحرير
مصطفى الهندي

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
• كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر

• البشروش
• السيد الخميسي
• تصميم الغلاف، غادة خليفة
• المراجعة اللغوية،
أشرف عبد الفتاح
الطبعة الأولى 2013م
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع، ٢٠١٣ / ٢٠٥٢٤
• الترخيم الدولي، 978-977-718-544-8
• الطباعة والتنظيد،
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت 23904096

البشروش

بين الشعر والرواية

المكان: مدرسة القناة الإعدادية للبنين فى شارع كتشنر المطل على البحر أكثر شوارع المدينة نظافة وجمالاً، بعد المدرسة بأمطار يرتفع "برجا" أشهر كنيسة فى بورسعيد بمعمارها الأوروبى الفاره، بعدها بأمطار قليلة تلوح قبة أشهر مسجد فى المدينة بعمارتة الإسلامية العريقة.

الزمان: سنوات قليلة بعد معركة بورسعيد التى بهرت العالم.
وأنا على أعتاب الصبا قادم من جوف المدينة، من أقصى حى العرب، جالس فى فصل "ثانية رابع" أتشوق هواء البحر المفعم برائحة اليود، أملاً عينى بزرقته اللامتناهية يهدر فى أذنى صوت أمواجه العفيفة الرتيبة وهى تتكسر على الرمال.. وفجأة ودون سابق إنذار أجدنى أقول الشعر:

هايم فى دنيا هواك والشوق مغلبنى
وان كنت قلت انساك حبك يكذبنى

إنها نفس النشوة التي اعترتني لحظة اكتشافى رجولتى فجأة ودون سابق إنذار أيضا .

يتقاطر زهوى وأنا أسير بين أقرانى .. وحدى أمتلك نشوتين .
أخذنى مدرس اللغة العربية - وكان يقرض الشعر- إلى صديقه
حامد البلاسى تعجبت وقتها كيف يكتب الشعر وسط ضجيج شارع
التجارى وزبائن محل العطارة من النسوة اللائى لا تكف أفواههن عن
الكلام، قدمنى البلاسى لمسابقة أقامها الاتحاد الاشتراكي، تسلمت
إحدى جوائزها فى نادى المعلمين - كان من قبل ناديا للجمالية المألوية
فى بورسعيد - أنظر فى المرايا.. أنظر إلى الضيوف فى ملابسهم
الأنيقة الغالية.. أنظر فى وجوه الشعراء الكبار وقد كساها الشعر هيبة
ووقارا.. أشكرك أيها الشعر.

فى الجامعة صادقت زميلى سليمان العطار.. صاحب أكمل
ترجمة لرائعة ماركيز (مائة عام من العزلة).. لم أتفوق عليه أبدا فى
أى مسابقة شعرية تقيمها الجامعة.. أعجبت أشعارى دكتور يوسف
خليف مازالت عندى ملاحظاته بخط يده فى أوراقى.. قال: كانت
العرب تقيم الأفراح والولائم إذا ظهر فيها شاعر، أنا أحسدك على
الشعر.. قتل البحث العلمى شعرى.. يضحك ضحكة دافئة مجلجلة
وأنا أقول: شعرى كله وحياتى لقاء كتابك " الشعراء الصعاليك " ..

غير حياتى هذا الكتاب علمنى كيف يكون الشعر تجسيدا للحرية،
يقول "عروة ابن الورد":

" إنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سممت وأن ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسوقراح المساء والماء بارد"
.. كان صوت الاشتراكية عاليا فى ذلك الزمان.. رأيت فى الجامعة
" حجازى " و"نجم" و"الشيخ إمام"، وزاملت زين العابدين فؤاد فى
فريق الجواله.. كان يمشى كالطاووس فخورا بشعره.. كان طفلا شاعرا
ثائرا يتلعثم ولا يزال.. كانت تهمته فى ثورة 18 و19 يناير التحريض
على الثورة.. قال للقاضى: هل هذا صوت يحرض على الثورة؟ إنه
الفلاح الفصيح يتلاعب بأعدائه.

يقول طه حسين: " اللغة العربية شعر ونثر وقرآن"، فهمت هذا
الكلام فى وقته بوصفه هروبا من معركة شرسة خاضها مع الأزهر
بسبب كتابه "الشعر الجاهلي" نفس المعركة التى خاضها صاحب
كتاب "الإسلام وأصول الحكم" الذى أثر السلامة أيضا.. دفع مجابلى
نصر حامد أبو زيد ثمنا غاليا.. لنرجع إلى الشعر والنثر ولنترك المقدس
فمازال الكلام فيه محفوف بالمخاطر.

ظللت لفترة طويلة بعد تخرجى من الجامعة - وربما لكونى شاعرا-

أسيرا للمقولة الشهيرة " الشعر ديوان العرب " حتى فاجأتنا مقولة شهيرة جديدة " الرواية ديوان العرب " .. الرواية فى صورتها الكاملة بوصفها - جنسا أدبيا حديثا ومكتملا - وفد على الثقافة العربية فى العصر الحديث بعد وصول المطبعة والترجمات والبعثات وصار صرعة سرت فى جسد الثقافة العربية مثل النار فى الهشيم .. حينما قرأت الشعر والنثر العربيين القديمين ونظرت فى كتب النقد القديم والحديث وجدت أننا يجب أن نتخلص من تلك الثنائيات العقيمة، هكذا علمنى أستاذى شكرى عياد.

درست كتاب "عيار الشعر" لابن طبا طباطبائي على يد محققه د حسين نصار .. الشعر هذا الجنس الأدبى المدلل ، لماذا يستعصى على التعريف ، من قدامة ابن جعفر حتى سوزان برنار ؟

أحببت الشعر حبا جما .. لقد وافق هواى تماما فلطالما كنت طائشا متهورا سريعا وناظرا عنيفا ومندفعا رقيق الحاشية قريب البكاء قليل الحذر لأصبر على ظلم ، أنتفض لأقل نبأة كمن يجلس على فوهة بركان.

ظلم النثر العربى القديم -والجديد- أمام هذا الطائر الطائش الراقص .. الشعر.

هل يمكن أن نتجاهل نصوص "ابن عربى" و"النقري" و"جلال

الدين الرومي" وتلك النماذج النثرية الفريدة لكتاب عظام على
مرالعصور العربية ؟

دهمنى الشعر فى بداية صبايا، قدرا ثمينا موازيا للحياة، أما الرواية
فقد سعت لها بقدمى لأسباب كثيرة بعضها متصل بالشعر وبعضها
متصل بالرواية وبعضها متصل بأحوال المناخ الثقافى أو السياسى.

بدأت كتابة الشعر رمانسيا خليليا.. بعد تعرفى على شعر الرواد
"صلاح عبد الصبور" و"حجازي" و"عفيفى مطر" و"بدر شاكر
السياب" وغيرهم.. ومتابعتى لمجلة الشعر أيام "عبد القادر القط"
تحولت تدريجيا إلى الواقعية والتفعية، وما كدت أبدأ مشروعى
الشعرى حتى مات جمال عبد الناصر وجاء السادات حاملا معوله
لهدم ركائز الدولة الحديثة الدين والاقتصاد والثقافة والسياسة، ففر
إلى الخارج من فر وصمت من صمت، وقتل الإسلامبولى السادات
ورموز الدين والفكر والثقافة والسياسة فى السجن، واستمر معول
الهدم على يد رموز الفساد حتى قام الشعب بثورة يناير، وطوال تلك
السنين العجاف ظللت أكتب شعرا ممنوعا محرما على مؤسسات
ثقافية وإعلامية يحررها موظفو أمن الدولة وأرباع مثقفين منافقين ما
كانوا يجدون مكانا إلا فى ظل الفساد والجهل، واصبح المخبرون نقادا
ونخلت ندوات الشعر من الناس وكاد أن يفقد الشعر دوره التنويرى

بعد أن حوله بعض الشعراء إلى فوازير ولو غاريتومات، ولولا أن نشر لي د عبد القادر القط في مجلة "إبداع" وكتب عني ناقد من سلاله النقاد الكبار هو "د محمود الربيعي" - لم أشرف بمقابلته حتى الآن - ولولا بقية من أصدقاء فصحاء مخلصين شعراء وصحفيين حقيقيين أتاحوا لي على فترات ما تيسر من النشر ما انتبه لي أحد.

خالي "الدسوقي" من الحكايات العظام كان عزوفا عن الكلام يحب الصمت والوحدة، فإذا التف حوله أصحابه من الصيادين وبدا الحكى يصمت الجميع كأن على رؤسهم الطير.. أورثنى خالي حب الحكى وأسراؤه وفنونه.

لطالما قال لي صديقي د مدحت الجيار أقلل من الحكى إنه إهدار لطاقتك إلا بداعية، وفي إحدى المرات قال لي أحمد عبد المعطى حجازي و كنت أحكى عن بورسعيد اكتب هذا الكلام.. كيف أكتب الحكى؟ الحكى لا يكتمل إلا في حضور الناس.. والحكاية تحكى عن الماضي، هي تاريخ بصورة ما، وفي التراث تبدأ بكان يا ما كان إنها تتعامل مع الماضي - الجاهز - ومع كاريزما الإلقاء وروح الارتجال.. أما الرواية فهي شيء آخر أكثر تعقيدا.. لا تلتزم الرواية الترتيب الزمني، فيها الماضي والحاضر والمستقبل، ولها مستويات من الزمان الداخلي والخارجي وزمن الحكى وزمن القراءة، والمكان وحركة الراوى بين

الداخل والخارج والشخص والحوار والأحداث إلخ إلخ ..
إننى شاعر يكتب شعري جننى يسكن وادى عبقر، ما لى والروايه
وقد بلغت الخمسين.

عرضت بعض ما كتبت على الروائى الكبير خيرى شلبى قلت له
هذه بروفة إلى أن أجد اللغة المناسبة قال الرواية تصنع لغتها، طرحت
كل ما عرفت من نظريات وواصلت الكتابة، كتبت عما أظن أننى
أعرف، كتبت عن نفسى وعن بورسعيد، كتبت شيئاً يشبه السيرة
الذاتية ولا يشبه كتابة أحد، لا "داريل" فى رباعيته ولا "إدوار الخراط"
فى اسكندريته .

فى الجزء الأول "البشروش" كتبت بورسعيد أيام 56 من عيني
طفل وفى الجزء الثانى " " الفرائس " رصدت هزيمة 67، وإن أمهلنى
العمر أكملت ما فى يدي من أوراق البشروش.

الجزء الأول: الوطن الجميل

الخواجة جورجى

- ابنك ذكى يا محمد

- سأعلمه وسيدخل الجامعة

يضع كمية كبيرة من صفار البيض فى "طاسة" كبيرة مع قطعة كبيرة من السمن البلدى

- كل يا ولدى.. كل.. لا بد للرجال أن يأكلوا جيدا

يبسط بقايا الدقيق على طاولة العمل الرخامية، يكتب بإصبعه

- قل ورائى ألف باء جيم

صورة الخواجة فى صدر المحل، تحتها فاترينة تمتد طوليا فى المنتصف تماما، فيها أصناف الجاتوه، وعلى الأرفف زجاجات بأحجام مختلفة وأشكال جميلة مرصوفة بعناية، بجانب علب الشيكولاتة الفاخرة.

يطل المحل مباشرة على ميدان "المنشية" فى حى "الإفرنج" قريبا من قناة السويس.

أتسلق درجتي السلم مستعينا يدي ورجلي، يساعدنني "المحصل"
على الصعود إلى المقعد العالي، أقول باعتداد بلغة ممزقة: "ميدان
المنشية"، يضحك "المحصل" ويقول: يعنى آخر الخط، ولا يأخذ مني
نقودا.

هناك خطان للنقل الداخلي، واحد يسير في شارع "الثلاثيني"
والآخر يسير في شارع "كسرى" - أمام بيتنا - ينتهى الخطان
إلى شارع جانبي ينفرع من ميدان "المنشية" أمام "كاتدرائيتين"
عملاقتين متقابلتين، أنظر إلى الإعلان الضخم على الناصية..
رجل عملاق ملفوف بالكاوتشوك أمام محل "لهيطة" لبيع إطارات
السيارات، بجواره على اليمين محل الحلويات الذى يعمل فيه أبى.
أصر الخواجة "جورجي" أن أحضر مع أبى كل صباح، يقول:
"العربي" وشه حلو"

وافق أبى أخيرا، خصوصا بعد تلك الحادثة التى ما زالت محفورة
بأعماقى.

كان الوقت شتاء، هبط الليل وأنا أبحث عن محل أبى، أدور حول
الميدان الصامت، المحلات المغلقة متشابهة، وكذلك الشوارع المتفرعة
عن الميدان، عدت إلى نهاية خط "كسرى" بين "الكاتدرائيتين" .. لا أثر

للسيارات، فقط الظلام وصوت الريح وهذه الحوائط المرتفعة التى تسد وجه السماء.

سرت قليلا تحت "البواكي" الشاهقة أحتمى من المطر وحببات الثلج الغزيرة المنهمرة، يسلمنى شارع إلى شارع، و"باكية" إلى "باكية"، وفجأة وفى وقت واحد تنفتح النوافذ و"البلكونات"، وتنهمر الزجاجات الفارغة، وأنا فزع لا أجد تفسيراً لهذا الجنون الذى أصاب الناس مرة واحدة.

ملأنى الخوف، فقدت القدرة على التذكر أو التمييز بين الشوارع، شلنى الرعب، هول يشبه يوم القيامة، وحدى بحجمى الضئيل أنتظر أن تنطبق السماء على الأرض، صوت الرعد ووميض البرق وصوت تحطم الزجاج المنهمر من البيوت على الإسفلت، وأنا تائه وحيد أرتعش من البرد، لا أعرف الطريق إلى بيتنا.

وكأننى فى حلم رأيت أبى على دراجتنا "الراي" السوداء الكبيرة، وسط المطر والظلام يبحث عنى فى تلك الشوارع المجنونة.

قال أبى: وجدته فى أول حارة اليهود

بحث أبى فى الشوارع المؤدية إلى حارة اليهود، وبحث عمى فى الشوارع المؤدية إلى "القناة" حيث الكباريهات:

"ريتس" "سيسل" "اسبلندد" وغيرها، كانا يخافان على من
"اليهود" و من جنود الاحتلال السكاري .

شهقت أمي وهي تضميني إلى صدرها في فزع: حارة اليهود ؟
وكان هذا الرعب الذي واجهته - وحدي - في حي "الإفرنج"
شيء وما يمكن أن ألاقيه في حارة اليهود شيء آخر .

قال عمي: إنه "الكريسماس"، فيه يسكرون وفي منتصف
الليل يلقون بزجاجات الخمر إلى الشارع ابتهاجا بالعيد، ألم تجد
سوى "الكريسماس" لتتوه فيه وأيضا في "الإفرنج" ؟

سألته عن حارة اليهود قال أساطير يشيب لها الولدان قال: في بعض
أعيادهم يقفون على رأس الحارة، يخطفون أول من يرونه من أطفال
المسلمين أوالمسيحيين يضعونه في "شوال" ويذهبون به إلى المعبد،
يضعونه في كرة كبيرة من الحديد مبطن جوفها بمسامير وسكاكين
مسنونة، يديرونها على محور تحته إناء فضي، وبعد وقت كاف لتصفية
دم الطفل القبطي أو المسلم، يفتحون صنبورا في أسفل الكرة فيمتلئ
الإناء الفضي بالدم، يأخذه الحاخامات ساخنا، يعجنون به فطيرا
يوزعونه على شعبهم في صباح العيد .

ظللت لفترة طويلة أحلم بالكرة الحديدية المغلقة وسكاكين اليهود
تمزق لحمي، وتصفى دمي .. ولازلت، ظللت لفترة طويلة لا أحب

- حتى "الإفرنج" ولا من يسكنون فيه.. ولا زلت .
- لماذا أنت عنيد هكذا يا "محمد"
- أنت وعدتني أن تبيعني المحل
- نعم سأبيعك نصف المحل والنصف الآخر "لأنطونيو"
- لا يا خواجه "جورجي" لم يكن هذا اتفاقنا، خمس عشرة سنة وأنا أبني هذا المحل، سنة وراء سنة وأنت تقول لي:
- عندما يجيء اليوم الذي أترك فيه مصر هذا المحل لك
- صدقني يا محمد (انت أسطى حلواني كويس) لكن إدارة المحل شيء آخر، ولولا إصرار ابني "ميشيل" على السفر ما تركت مصر.. ما الذي فعله بكم "جمال عبد الناصر"؟

هيدا ليصا هيدا

قال أبوه: ابق معي وسأحضر لك حصانا من الشيكولاته

- سأذهب مع أمي

تلك المركب مملوكة لأحد أخواله، تنقل إلى البلدة الرمل الأصفر
وأحجار البناء الحمراء، وبعض المسافرين.

"النسايمة" واحدة من تلك القرى المتناثرة على تخوم البحيرة،
يسكنها صيادون وفلاحون، تنحدر أمه من سلالة الصيادين.

خرج أجدادي إلى البحر، داست أقدامهم، تلك الأرض الشاطئية
المنعزلة، قبل أن يشاركهم فيها الوافدون من الأخطاط، والأجانب
الغزاة.

يرفع خالي "الحلة" الكبيرة من النار، "يسمي" ويغرف من الأرز
الأحمر الدسم، دفن فيه ما قسم الله من أطايب البحيرة.

تقول أمي: لا يطبخ أحد "المدفونة" كما يطبخها "المراكبية"

يقول خالى : سمك يخرج من الماء إلى النار ما ذا تنتظرون أن يكون
طعمه ؟

يقول المراكبى : الريح "منسّم" وشك حلوى "عربي" ، يملأ الهواء
القلوع ، تنساب المركب برشاقة مائلة على جانبها الأيسر ، صوت
الارتطام على الجانب الأيمن المرتفع ، ورشاش الماء المندهم يدغدغ
الحواس ، يرفض أن يبقى فى "الخن" أسفل السفينة ، تسلمه أمه لأخيها
يمرح على سطح المركب المحذب الخطر .

يركب ذراع الدفة الغليظ ، يتعلق بالحبال ، ينبطح على الخشب
"الملياط" الذى حال لون دهانه القديم ، يقبض الماء الذى يفر من يديه
من خلفا تلك الكهرياء الساحرة فى أصابعه وروحه .

- حاسب عروسة البحر تسحبك من يدك وتغوص بك عند أهلها
ولا تعود

يحب هذا الخال المراكبى .. عالم من الخيال ، وإن شئت الدقة ،
عالم من الواقع الرحب ، معه تتعدى البحيرة مائيتها و"زبدها" و"غلّتها"
و"حشّفها" وطينها ورمليها وقواقعها وشواطئها وقمرها وريحها ، تتحول
إلى كائن حى ، على نحو ما يتحدث ويتواصل ، يكتمل بناسه وأسماكه
وجنه وعفاريته ..

مع هذا الخال المراكبى ، تعلمت لغة الكائنات .

لا يتذكر من "النسايمة" سوى بيت خاله المطل على البحيرة، أمامه
مرسى كبير لمركبه الكبيرة، خلفه تمتد حقول الأرز المغمورة بالماء
العذب يسبح بين شتلاته البعوض المتوحش، وتلك الشجرة على رأس
"المدق" المؤدى إلى مساكن القرية الريفية، والذي ينفرع إلى "مدق"
آخر صغير يؤدى إلى المقابر.

من فوق هذه الشجرة قفز "كمونة" إلى البحيرة مع الأطفال
القافزين، سقط فى الماء "الدراك" على رأسه "زرع بصل"، شج رأسه،
كادت تنقصف رقبتة ويموت، ضج أطفال القرية بالضحك على هذا
"البورسعيدي" الغشيم الذى ضحكت عليه "الجنية".

تحت هذه الشجرة فى الغروب نلتف حول خالى، نستمع إليه
وهو يحكى عن "الجنية" التى تسكنها.. تختار من الشباب الذاهبين
إلى القرية بالليل أكثرهم فتوة وجمالا، تغريه بوسائلها التى لا تقاوم،
يذهب معها إلى المقابر، تشرب دمه.. انظروا يمك خالى بعود صلب،
ينحت لحاء الشجرة فيسيل ما يشبه الدم.

يقول: إذا جف هذا الدم نعرف أن أجمل شباب القرية سيزور
المقابر، وغالبا لا يعود، وإذا ما عاد يعود "مخاويا" "ممسوسا"، يهيم على
وجهه فى شوارع القرية بالنهار، ويرجع إلى المقابر بالليل.

- لماذا يعود إلى المقابر يا خال ؟

- أصبح "مجدوبا" .. جذبته الجنية بجمالها

- أريد أن أصبح "مجدوبا" يا خال

يضحك الأطفال من هذا "البورسعيدى" الأحمق الذى يحسد
المجاذيب على ذهاب عقلهم.

يقول خالى: فى موسم الفيضان تدب الحياة فى كل شىء، تهتز
الأرض، تربو ويتفجر خيرها، حتى الماء فى البحيرة يكاد أن يصبح عذبا
فراتا، يتقاذف فيه السمك الغزير من كل نوع شبعانا دسما، نقبضه بأيدينا
من الجحور التى صنعتها أقدامنا فى طين البحيرة الخصب، يختلط
"المالح" "بالخلو" والأرض بالأرض والخير بالخير..

بيت خالى فى "مرج البحرين"

فى بورسعيد كثيرا ما أذهب فى الليل وحدى إلى "المردة"، عند
المدخنة الطويلة، أنتظر "العون" الذى وصفه الخال.. لماذا لا يظهر؟..
تسحبه الجنية من يده وتغوص به إلى القاع، عالم ملئ "بالدلافين"
المقهقهة، وحوريات البحر، تلمع زعانفهن وذبولهن فى الضوء الأزرق
والفضي، أصداف مذهبة وقواقع من نور..

يطأ سمكة بنية لزجة، حصان الشيكولاتة الذى احتضنه ونام تحول
إلى فطيرة بنية لزجة، صوت أبيه وهو يحمله على يديه، يعلمه السباحة
فى الماء الرائق المنعش: اسمع كلامى ابق معى أحسن لك

يقف الهواء تماما، المركب التى تمخر الماء جذلة مجلجلة أصابها

الشلل، فجأة تقف عاجزة كصخرة ميتة، انكفاً صدرها فى الماء
مثل طائر قتيل، فقط الحر والرطوبة التى " تشر " عرقاً من أجسامنا
المختنقة.. ينزل الرجال إلى الأرض القريبة يجرونها باللبان.

هيلا ليصا

هيلا

هيلا ليصا

هيلا

صوتهم شجى وعميق.. وحزين

على رأس المركب، يقف الخال، طويل مثل "إله" فرعونى مهيب،
فى يده "مدراة"، طويلة يتحسس بها القاع، الذى يحفظ تضاريسه
تماماً، يتخذ لمركبه طريقاً آمناً، وسط تلك المياه الضحلة القريبة من
الشاطئ، عضلاته التى تلمع فى ضوء القمر، أشد صلابة من "المدراة"
التي فى يده

- الهمة يا رجالة

"هيلا ليصا

هيلا

هيلا ليصا

"هيلا

الوطن الجميل

شئ ساهر هذا الخط المزد بين الماء الضحل واليابسة، يحيط
بالمدينة، كقلادة من الأصدا ف البيضاء الناصعة، تتخللها بقع خضراء
داكنة، "طحالب" بحرية تتحرك مع حركة المياه قدوما وإيابا.. خارج
المدينة، الأرض بيضاء مشوبة بالاحمرار، بينها أخاديد من الطين
الأسود المشقق من حرارة الشمس.

يقفز فوق جزر الملح الأبيض برشاقة الطائر البحري .. البقعة
التي تميل إلى الاحمرار فخ مميت، بركة ملحية لم يكتمل جفافها، ملح
يفلي، قطعة من جهنم الحمراء.

يضع قدميه في ماء البحيرة، إحساس بالنشوة والتعادل، ينسرب
الماء بين خلاياه وروحه، تنفتح مسامه لهذا الخدر الكوني الأسر،
يخرج غابة الصيد من المخبأ السري، ينتزع الديدان البحرية الملساء من
كتلة الطين المبللة.

قال عمه: هذه الديدان تلحس الجلد، تمحو بصمات الأصابع

- ما فائدة بصمات الأصابع؟ .. السمك ألد

يعرف نوع السمكة من رعشتها فى الماء، "القاروس" هذه السمكة الملكية تأكل بأطراف شفيتها، لا تشعر إلا وهى معلقة تتلوى بوقار وانسيابية، "الدينيس" و"الشبار" و"الوقار" و"اللوت" أسماك فتاكة تهجم على الطعم فى افتراس، محدثة جلبة وصخباً شديداً، عند خروجها من الماء.

لا أحب أن أخرج للصيد مع "كمونة"، لا يصطاد "بالغاب والسنار" يفضل "التجحير" يسير فى الماء "الدراك" فى خط مستقيم محدثاً خلفه عاصفة من العكار، الذى "يطفش" السمك من أمامي، ثم يعود لتلك "الجحور" التى صنعتها أقدامه فى الطين الحى، يقبض السمك منها بكفيه المجردتين، يضعه فى الصفيحة المعلقة فى رقبته بحبل رفيع، مرخى قليلاً، حتى تظل طافية وقريبة من يده التى يصطاد بها.

يخرج "كمونة" من الماء وقد امتلأت "صفيحته" بالسمك، ينظر إلى فى شماته ويقول: "ودنك منين ياجحا".

الصيد "بالغاب والسنار" متعة مكتملة، لا يعرفها إلا أصحابها، طقس معقد ومرتب، لا يصبر عليه إلا أهله، يبدأ بتجهيز الغابة فى المنزل ليلاً، قبل الخروج إلى الصيد فى الفجر.

يختلف نوع الغابة وطولها، وكذلك طول الخيط وقطره، وحجم

"ثقل" الرصاص، وعوامة الفلين، بحسب مكان الصيد ونوع السمك غابة "الشبار الأخضر" قصيرة رفيعة، سواء أكانت من الغاب البلدى أو من الغاب الرومى "اللبلاب"، خيطها رفيع قصير و"ثقلها" خفيف، وقريب من "وش السنار"، "الشبار الأبيض" الكبير غابته أطول وخيطه أكبر "قطرا"، يوجد فى الأماكن العميقة من البحيرة، "الدنيس" فكه مسلح بأسنان قاطعة، أربط السنارة جيدا فى "واير" رفيع من الصلب فى نهاية خيط البلاستيك.. قليل من يربطون السنارة بطريقة صحيحة، أعرف أكثر من طريقة لربطها، لا يعرفها إلا المحترفون.. يستسلم لهذا الخدر اللذيذ، وتلك "البطاحيش" تنقر جلد قدميه بمناقيرها الرقيقة، تلتقط العوالق البحرية الدقيقة، العالقة بشعر قدميه، يشعر أنه جزء من هذا العالم الرائع حقيقة لا مجازا، مع البحيرة يصبح جسده أكبر، وكذلك روحه.. مع الوقت اكتسب القدرة على رؤية ما لا يراه الناس بأبصارهم، يشعر باقتراب السمكة من "الطعم" قبل اهتزاز قطعة "الفلين"، لم يصدق فى البداية، تطورت حواسه واكتملت قدرته على الرؤيا، لم يعد فى حاجة لقطعة "الفلين".. يفرح لانصراف كمونة بصفحته الصدئة، يخلع ملابسه، يضع فوقها الطاقية "الخصوص" العريضة التى تشبه طواقى "المكسيكيين".. يلقي بنفسه فى هذا الحوض الخاص المقدس، الذى يمتد إلى آخر مرمى البصر، الجنة.. هى هذا الوطن الجميل.

الشاطئ الجنوبي

فى مكتبة المدرسة وضع الأستاذ أمامه كتابا ضخما وقال: اقرأ هؤلاء العباقرة الفرنسيون أتى بهم " نابليون "، مع مدافعه وباروده، وصفوا المنطقة الساحلية الشمالية وصفا دقيقا، لم تفتهم فائتة، وصفوا الحقول الطينية الممتدة السوداء، التى شققتها الشمس، وحقول الملح البيضاء والحمراء، وتلك البرارى الطبيعية ونباتاتها نبتة نبتة، وصفوا الطيور المهاجرة من كل لون وصوب، وصفوا كل شىء، ومع ذلك بقى شىء كبير فاتهم، شىء لا تدركه الأبصار ولا العقول، شىء متصل بالقلوب والبصائر والأحوال، شىء كبير وجميل وغامض، شىء يشبه السر.. يشبه الروح،

تلك الأرض الحبيبة الماكرة لا تبوح بأسرارها إلا لأبنائها .

يحب هذا الشاطئ الجنوبي، هل هى الوحدة المطلقة مع الكون.. فلا بشر سوى هذا الماء الرقراق وهذه القلوع التى تبدو على البعد وكأنها تلك المراكب الورقية التى يطلقها فى الماء، ثم يتتبعها بعينيه إلى أن تغيب؟ أم لأنه يشعر بدقات قلب هذا الوطن الممتد خلف هذا الشط

لأكثر من ألف كيلومتر، كما يقول أستاذ الجغرافيا، وإلى آلاف السنين،
كما يقول أستاذ التاريخ؟

صحيح، إنه لم يذهب لأبعد من تلك القرى القريبة والجزر المتناثرة
فى البحيرة: "ابن سلام"، يزوره فى "مولده" بعض من أهل المدينة
وبعض من أهل القرى القريبة، رجالا ونساء، يارسون حول "مقامه"
طقس الانطلاق .

"المراحات" التى يراها خالية تماما ويقول خاله: إنها تأوى
"المطاريد" والهاربين من الحكومة.. عالم مكتمل بغابه وناسه وجنه
وعفاريته، بدجاجة وخرافه وجواميسه.

"تنيس" المدينة الغارقة فى الماء.. وفى الأساطير.

- تقول أمى إنك مجنون وستخبر أبى إن رأتنى معك.

- لماذا تأتى معى إذن؟

- أريد أن أرى الشاطئ الجنوبى.

- ضع قدمك فوق موضع أقدامى وكن على حذر

ينطلق الصديق صارخا، يجوس فى الأماكن الملحية المشتعلة،
يجرى وراء صديقه، يحمله على كتفيه، تنغرس القدمان فى الجحيم،
لا يستطيع القفز برشاقة الطائر البحرى، تصعد السنة النار إلى رأسه،
يكتم صرخة هائلة ترتد إلى فضائه الداخلى.

يغرس قدميه بشدة وينسى كل شيء، فقط يضع نظره في الشاطئ
الجنوبي، يقترب خطوة.. خطوتين.. أين هذا الألم الخرافى؟!
قدماه قطعتان من الخشب المدمى.
يجلس فى الماء، ينظر إلى دمه النازف من قدميه اللتين، شرحتهما
القواقع الطينية المملحة، يخرج الدم قانيا، ثم يختلط بالماء الرائق
فيصبح ورديا، تتدرج خطوطه فى الخفة حتى تتلاشى.
صوت خاله المراكبى: ماء البحيرة تريق يشفى كل الجروح.
قال صاحبه: إنها الأرض الملعونة، لن أمشى معك بعد اليوم،
أخذته المفاجأة ورجه الوصف، ثم اكتشف الحقيقة اللذيذة..
هذه الأرض الحبيبة الماكرة تختار من تمنحه سرها..
ملأه الإحساس بالفخر وبالمسئولية..
قالت الأم: اذهب واغتسل قبل أن يراك أبوك.

الضفة الأخرى

يطأ القواقع البيضاء على الشاطئ الرملى، يرتاح لصوت انفقاعها تحت حدائه الجلدى الخشن، يتتبع آثار الكابوريا البرية، فى خطوطها العنكبوتية المتقاطعة المنتهية دائما إلى فوهة حفرة رملية ناتئة، شبيهة بفوهة بركان صغير، نفس الخطوط التى تغزلها أمه على طرف الستائر قبل أن تعلقها فوق شبابيك البيت، لم يستطع أن يفهم ما تفعله هذه الأبرة الحديدية الكبيرة المعقوفة عند الرأس كمخلب صغير، كذلك لم يستطع أن يفهم لماذا يريد هؤلاء الناس قتلنا ؟

ينظر إلى الماء المنسحب تحت قدميه، بعد انكسار الموجة المخاتلة، يشعر بدوار من يركب "الساقية القلابة" وهى تنحدر لأسفل، هل الماء هو الذى يتحرك أم هى الأرض التى تميد؟

يطلق بصره إلى خط تلامس الماء مع السماء، هذا الفراغ المخيف الذى يفصل بيننا وبينهم، ما لهم وما لنا سكان هذه الضفة الأخرى؟ ليت هذا البحر لا ينتهى إلى أرض، ليت ماء بلا حدود، الخواجة

"جورجي" أتى من وراء هذا البحر، ومن ورائه أيضا هذه الخفافيش
السوداء التى فى السماء.

طائرات صغيرة جدا على ارتفاع شاهق، يتتبع ذيل الطائرة الدخانى
الأبيض الممتد مثل أفعى طويلة، ينقطع أحيانا ثم يعاود الاتصال، يبدأ
من نقطة صغيرة لا تكاد تبين، رفيعا وحادا ومستقيما فى المقدمة، ثم
يأخذ فى التعرج والانتشار.

يقول عمى: هذه مرحلة الاستطلاع والتصوير.. بعد ذلك يأتى
القصف

لا أستطيع أن أستوعب ما يجرى، كلام غير مرتب وغامض ومخيف

- "الإنجليز" يريدون احتلالنا مرة أخرى

- "فرنسا" تريد استرداد القناة

- هل القناة فى "باريس" وسرقها منهم "عبد الناصر"؟

- "اليهود" وراء كل مصيبة

قال خالى: المركب على أول الرصيف فى "المردة" القديمة، لا بد

أن نبعد الأولاد عن الخطر، جهزوا حالكم، سأنقلكم إلى "النسايمة"

قالت أمى: "النسايمة" ليست بعيدة ورب هنا رب هناك

قال عمى: لن أسافر

قال أبى: نطمئن على الأولاد ثم نعود.. "النسايمة" مفتوحة على

بر مصر و"بورسعيد" جزيرة محاصرة

قبضة أبيه القوية تعتصر معصمه الصغير، خرجنا من شاطئ البحر إلى شارع "الأمين"، وصلنا "المردة" القديمة، الناس فوق بعضها، المراكب ممتلئة عن آخرها، الطائرات تقصف البحيرة، بعض المراكب و"اللنشات" الصغيرة تنقلب بمن فيها، إنه يوم الحشر، الجثث تغطي الماء، معظم الضحايا من النساء والأطفال، فقد رجل أسرته كلها في الماء، يحتضن رضيعا ميتا، جلس صامتا ينظر للماء في ذهول.

يصيح الخال غاضبا: أخرتنا يا ولد أين كنت ؟

قال أبى: وجدته على شاطئ البحر

المركب مزدحمة، الماء قريب جدا من سطحها العلوي، وجوه كثيرة من العائلة، وأيضا ناس كثيرون لا أعرفهم، رغم امتلاء القلوع، تتحرك ببطء شديد.

أمام الطابية الغربية عند نقطة التقاء الشاطئ الجنوبي وصدر البحيرة الفسيح، يقفز العم إلى الماء سابحا في اتجاه المدينة، وراءه يقفز الأب. إنها "الجنية" التي سحبتني إلى الماء، الذي بدا في تلك اللحظة داكنا وعميقا.

من المركب يصيح الخال: اطمئن يا "محمد" الأولاد في عيني الأرض بعيدة هذه المرة، لم يسبق له أن سبح مسافة بهذا الطول - اقترب منى يا بنى.. استرح قليلا.. ضع يدك فوق كتفى

- اطمئن يا أبى هذا الشاطئ بيتى وهذا الماء مائى
رغم غبشة المساء، يقفز على الشاطئ الملحى برشاقة الطائر
البحرى، يقود الأب والعم، إلى المواضع الملحية الآمنة.

شارع كسرى

يقسم المدينة من المنتصف تقريبا، وهو شارع "طولي" .. الشوارع "الطولية" تمتد متوازية مع شاطئ البحر، والشوارع "العرضية"، تتعامد بين شاطئ البحر وشاطئ البحيرة.

يمتد شارع "كسرى" فى خط مستقيم، يبدأ من "المناخ" غربا، وينتهى شرقا إلى "قبة" المبنى الإدارى "لهيئة قناة السويس البحرية"، التى أممها "جمال عبد الناصر" وتقع مباشرة على ماء القناة .

بداية شارع "كسرى" من تقاطع شارع "الأمين" .. أول مرة يرى شارعا بلا ناس، قطعت عيناه شارع "كسرى" من أوله إلى آخره فى لحظة واحدة، تعجب كيف أصبح شارع "محمد علي" قريبا بهذا الشكل .

يفصل شارع "محمد علي" بين شرق المدينة الشرقى "الإفرنج" والذى ينتهى إلى القناة، وبين حى "العرب" الفقير الممتد غربا حتى حى "المناخ" الأكثر فقرا .

يبدأ شارع "محمد علي" من كوبري "الهويس"، الذي يصل ماء القناة بماء البحيرة، حيث يبدأ طريق "المعاهدة" المفضى إلى "الإسماعيلية" والمحصور بين القناة وبحيرة المنزلة، يمتد شارع "محمد علي" شمالا حتى يصل إلى البحر الأبيض المتوسط .

فى حصّة الرسم قال للأستاذ: كيف أرسم شارعاً ؟ الشارع كبير والورقة صغيرة

اللوحة الفائزة علقها الأستاذ فى الفصل ، حيطان مصمتة لبيوت عالية فى الصدر، ثم يختنق الشارع حتى يشبه نفقا مظلماً، عرف الآن.. الشوارع الخالية فقط هى التى تصلح للرسم، تستطيع أن ترسمها على ورقة صغيرة، وتستطيع أيضاً أن تقطعها فى خطوتين.. عرف الآن لماذا لا يحب حصّة الرسم.

سرنا فى الشارع الميت، وصلنا لتقاطع شارع "كسرى" مع شارع "بنى سويف" .. يفتح الأب أبواب محله الجديد، تسلمه من هنا ولم تلبث أن قامت الحرب.. وسط الدخان والظلام يظهر عم "قلفوط" صاحب القهوة، معه عم "حلمي" الحلاق..

- كيف حال الناس فى "المطرية"؟

نظر أبى إلى عمى وقال: لم نسافر إلى "المطرية"

- والأولاد؟

- سافروا مع خالهم
- كنا نظن أن معكم عيشا "فلاحي" وطعاما
- نحن لم نغادر المدينة كما ترى
- يذهب عم "قلفوط" يحضر خبزا جافا وقطعة من الجبن وأكواب الشاي - الشباب طلّعوا "الجميل"
- منذ الصباح والسيارات العسكرية توزع السلاح على الناس
- يضع العم كوب الشاي ويقوم
- إلى أين ؟
- إلى "الجميل"
- ليس معك سلاح
- سأصرف

بلاعة عم السعيد

- الكهرباء مقطوعة.. ضربوا "وابور النور"

- ضربوا أيضا محطة المياه

- من أين تشربون؟

- ما جمعناه من "تصافى" المواسير

حملت "آنية" كبيرة من المحل وخرجت، لن أنسى نظرتهم وأنا
مقبل عليهم و"الآنية" على رأسى تترجرج، والماء يتساقط من شعرى
وملابسى .

نتنافس يوميا أنا و"فهمى قلفوط" فى تنظيف شارع "كسرى"،
أكنس أمام محلنا وهو يكنس أمام القهوة، ثم نحضر خراطيم المياه،
ونظل نطفئ إسفلت الشارع الملتهب.

حينما تنقطع المياه ويأتى عم "قلفوط"، أظل أضحك وهو يجرى
وراء ولده، يقذفه بكراسى القهوة ويقول: أنت "لعباتى" وكسول كان

يجب أن ترش الشارع قبل أن تنقطع المياه، انظر إلى "العربي" ولد ناصح ونشيط .

بدأت الحكاية صدفة، جوارنا تماما، على ناصية الشارعين، محل "محمد الجيار" البقال، أمامه على الرصيف يقف عم "السعيد" بائع "الطعمية"، لا يفتح إلا بالليل.

يتزاحم الناس. يتخاطفون "الطعمية" اللذيذة، المحشوة بالبصل البنى، والمكسوة بالسمن الذهبي، يشترون أيضا الباذنجان المقلّى المنقوع فى الخل والثوم والطماطم، يقف عم "السعيد" على غطاء "بلاعة" حديدى ومستطيل.

حينما وقع منى "الريال" الفضة، رأته يتدحرج ويسقط داخل "البلاعة" تحت قدمى عم "السعيد"، لم أتكلم، أعطانى أبى "ريالا" آخر.. ظلمت أكل الطعمية الشهية بلا شهية.

فى الصباح الباكر، قبل أن يفتح عم "محمد الجيار" دكانه، أزحت غطاء البلاعة الحديدي، مددت يدي فى الماء، الذى تفاجأت بأنه نظيف، أخرجت "ريالي" ومعه بعض "الفكة"، خمسات قروش فضية عشرات قروش عليها صورة الملك على رأسه الطربوش قطع مربعة من الفضة بقيمة قرشين ونصف وبقيمة قرشين وأخرى نحاسية بقيمة نصف القرش وقليل من "الريالات" الفضية و"الملاليم" النحاسية

وأنصاف الملايم، كنز من العملة الصغيرة والمتوسطة، ظلت لفترة طويلة متجيرا هل أخبر عم "السعيد" ؟

أخيرا توصلت لقرار جري ومنطقي ومريح، على الأقل بالنسبة لى .. هذا رزق ساقه الله، وحرام أن "أرفض" النعمة بقدمى .. أو حتى بيدي، فعم "السعيد" رجل يخاف منه الأطفال، ولا يعطى "طعميته" اللذيذة إلا لمن يحمل نقودا، ولم أره فى يوم من الأيام يعطى أحدا شيئا بلا ثمن، لصغير أو لكبير، لغنى أو لفقر، كما إنه لا يقف على "أملك أبيه"، إنه واقف على رصيف عم "محمد الجيار" وفوق "بلاعة" الحكومة .. هى نقود سقطت من أطفال خائبين، وربما ضرب بعضهم بسبب وقوعها "علقة" ساخنة، فليس كل الآباء مثل أبي، وليس كل بائعى "الطعمية" مثل عم "السعيد".

قال أبى: هذه مياه نظيفة تتسرب من "محبس" حنفية "المطافى"

.. كانت المياه ساعتها مقطوعة عن البيوت

فى الأيام التى تنقطع فيها المياه كنت أتحسب إلى "البالوعة"، حتى لا يرانى ابن "القهوجي"، أرفع الغطاء الحديدي، أفتح المحبس قليلا، "أنزح" الماء وأرش الشارع، وعندما يأتى عم "قلفوط"، أظل أضحك وهو يجرى وراء ولده، يشتمه ويكسر على رأسه كراسى القهوة، "وفهمي" ينظر إلى بعينين يتطاير منهما الشرر.

صوت عم "قلقوط" وهو واقف على رأس "حنفية المطافي" ينظم
الطابور: بالدور.. كل واحد سيأخذ نصيبه
"صوت عبد الناصر" في الراديو: سنقاتل.. سنقاتل حتى آخر
قطرة من دماءنا
ينظر أبى إلى.. يضع كفه الكبيرة فوق كتفى.. ما أرق هذه الكف
الكبيرة.. القوية!

قطار الدلتا

يخرج الضفادع الميتة المنتفخة ويبكي، وضعها كمونة في حوض
الفسيل الكبير، المبنى من الطوب الأحمر، تحت حنفية المياه الضخمة،
في مدرسة "أجا" الابتدائية.

أقمنا في مبنى المدرسة، يقتسم "الفصل" عائلتان، أخذ أبى فصلا
كبيراً، لنا ولعمتى وأولادها.

- لماذا يفعل ذلك يا أمى؟

- مسكين "كمونة" قلبه غير رحيم

بامر الحكومة تتجه اللنشات والمراكب إلى المطرية، ومنها يتم توزيع
المهاجرين على كافة محافظات مصر.

استقبلنا الفلاحون أولاً بالطعام والعطف، يتسابقون فى إكرامنا
وإنزالنا من السيارات الضخمة التى أتت بنا من المطرية.

مع الوقت لم نعد ضيوفاً صرنا "مهاجرين"، كلمة جديدة فى
قاموس الشعب المصرى، ذكرتنا بكلمة "لاجئين" التى نسمعها

فتشرفى نفوسنا الشفقة على إخواننا الفلسطينيين، آه من هذه الشفقة القاسية.

ظل الفلاحون ينظرون إلينا باندعاش وحذر، عاداتنا لها طعم البحر كما إننا لم نتقبل بسهولة، هذه الحياة الريفية التى تنام من المغرب.

جاءنا أبى مصابا بشلل فى وجهه، يغطيه "بتلفيعة" كبيرة حتى لا نرى فمه المشدود جهة اليسار قال الطبيب: لفحة برد شديدة.. علاج بسيط ويشفى إن شاء الله

يفرش أبى فرشته على البلاط، وينام بجوار باب الفصل حتى يحرس الجميع، فى "بورسعيد" ينام على سرير ضخم بأربعة عمدان حديدية، ومراتب تحرص أمى أن تضعها فى الشمس كل صباح، نخرجنا من "الدار للنار" .. كان يجب أن نبقى فى بورسعيد .

أصبح عمى عصبيًا، كثرت احتكاكاته بشباب الفلاحين، نذهب يوميا أنا وهو إلى "المنصورة"، لعمل جلسات الكهرباء على وجه أبى، لم أفهم كيف تشفى الكهرباء الوجه المشلول، نركب قطار "الدلتا" الصغير البطيء الذى يشبه اللعبة، يتهادى وسط الحقول الخضراء وعلى كوبرى "أجا" الرفيع الذى رأيت المياه وقد جفت تحته، والفلاحون يقبضون الأسماك الحية من الطين "الرائب" بأيديهم، ورأيتهم يتنقلون

بين الضفتين البعيدتين على أرجلهم، خائضين فى الطين الأسود،
تعجبت يومها، كيف أصبح الكوبرى بعيدا جدا ومرتفعا، رأيت أيضا
الماء البنى يتدفق فى دوامات عكرة، مسرعا ومحتدما، وله هدير يشبه
هدير بحرنا فى يوم هائج.

أسير على حافة النهر، أتعلق بهذه الأشجار التى ترسل أحبالها إلى
الماء، أقذف ثمارها التى تشبه قرون الخروب الكبيرة، لم تعد هناك قرون
فى متناول الشاطئ، القرون الكبيرة وحدها بعيدة ومتحدية، أضربها
فتسقط فى الماء المندفع الغاضب، أتبعها إلى أن تقترب من الشاطئ،
أحاول انتشالها بأطراف أصابعي، أنجح قليلا وأفشل كثيرا، أجد عمى
جالسا تحت شجرة، ينظر إلى الماء وهو شارد، يرسم "الضامة" فى
الأرض الرملية المنبسطة، يعلمنى كما كان يفعل على رمل "بور سعيد"
الناعم، يراقب عن بعد بناتنا عصرا، وهن متجمعات تحت الأشجار،
قريبا من الماء ومن باب المدرسة، يحكى لى أخبار بورسعيد، كيف
اختطف الفدائيون "مورهاوس" وكيف فجر "عسران" "ويليامز".

فى الليل أرى نفسى راكبا دراجتنا "الراي" السوداء الكبيرة،
مستدرجا "مورهاوس" إلى كمين الفدائيين.. ليتنا لم نهاجر.

أحمل فانوسا صغيرا، أخرج إلى الحقل القريب أريد الهواء، مزق
البعوض جلدي، ليل الريف أسود وثقيل، الأرض نائمة، الأشجار

نائمة، لا يصحو فى ليل الريف سوى الضفادع المسكينة، وهذا
البعوض المتوحش، سماء الريف مظلمة ليس فيها نجوم ولا قمر.
تحتبس الصرخة فى حلقة قليلا قبل أن تخرج منشرخة مثل سهم
أفلت وتره..

- لماذا عيون الكلاب هنا مخيفة يأمى؟

- حمدا لله على سلامتك.. إنه ذئب

- ذئب!.. لماذا خلق الله هذه المخلوقات المتوحشة فى صورة

الكلاب؟

عش الدبابير

عجبية ذاكرة الأطفال، أتذكر حادثتين كأنهما حدثتا بالأمس فقط، "الأولى": عندما حاولت أن أمسك القرن الكبير، قبل أن ينفلت إلى المنطقة التي لا أطوله بعدها، زلقت قدمي بكومة القش الذي وقفت عليه، كاد الماء الهادر أن يأخذني في دواماته الغاضبة، وأنا متشبث بالطين، أنزلق قطعة فقطعة، أنفلت إصبعاً فإصبعاً، لولا أن ساقى الأقدار عمى.. أنا مدين بحياتي لهذا العم الجميل، الفارع الطول، بجسمه الهرقلي، وعينه الواسعتين، وحاجبيه المرفوعين إلى أعلى في اندهاش واعتزاز وثقة، وأنفه الصغير الحاد، كرأس حربة من الذهب، وحيائه واحمرار وجهه إذا أطالت الفتيات النظر إليه، كل فتيات القرية يطلن النظر إليه، كل شباب القرية يتحرشون به، ومنهم من يعلم حياءه ومروءته.

"الثانية": لا أتذكر ما الذى أصابنى بالجنون فتسلقت مواسير المدرسة، حتى اقتربت من سطوحها، وضعت يدي فى عش للدبابير

فى أعلاها، تلسعنى الدبابير وأنا اهبط مسرعا، لو تركت يدى لسقطت
ميتا لا محالة، عند منتصف المسافة تقريبا أسقط، بقيت فترة طويلة على
الأرض لا أقدر على الحركة حتى أتى من رآنى، ظن الجميع أننى هالك.
أفيق من الحمى أجد الحارس العجوز على رأسى، نزع أطراف
الدبابير العالقة بجسمى، غطى الجروح بالطين وانتظر،

قال: هذا هو العلاج الوحيد

يتعجب لكثرة الإبر العالقة بلحمى، الوحيد الذى عرف السبب
هو عمى، أخبرته عندما جاء ولم يخبر أحدا.
إلى المنصورة أذهب مع أبى وحدى، فى الأيام التى يختفى فيها
عمى ثم يعود مغبرا وهزيلا.

- أين كنت؟

- فى بورسعيد

- كيف دخلت .. وكيف خرجت؟

- ربنا سلم

قالت أمى لأبى: امنعه يارجل .. سيموت

قال أبى: دعيه فى حاله .. سيموت إن بقى هنا

كانا يعرفان أنه يرافق الفدائيين، فى دخولهم وخروجهم من المدينة.

فى الأيام القليلة التى يقضيها عمى فى "أجا"، أستيقظ معه فى

الفجر، تجرى سويًا بمحاذاة الطريق عدة كيلو مترات ..

يقول: الجرى في الصباح قوة للروح والجسم وإطالة للنفس
أعود وفي قلبي وعقلي أحاديث عمى .. أعود دائما وفي جيبى،
حبّات خضراء طازجة مما تنتج الأرض، ألتقطها من الطريق، يبدو أنها
تسقط من أحمال الفلاحين عند النقل .. هذه " بشاير " أنت مرزوق
يابنى وطريقك أخضر، يقول حارس المدرسة العجوز وأنا أدفع إليه
ببعض ما أجد .. يتأمله في سعادة قبل أن يمسه في ثوبه ويضعه في
فمه قليل الأسنان .

قلت: أريد أن أركب حمارا

في اليوم التالي أتى بحمار، وضعني فوقه وتركني .. بعد أن انفلت
الزمام وانطلق الحمار، يفتح العجوز فمه قليل الأسنان ويضحك، حتى
ابتل شاربه بالدموع، وأنا أصرخ والحمار يقفز في الأرض الزراعية،
عابرا هذه الجذوع فوق مجارى المياه، وجائسا في الأرض المخططة،
حتى وصل إلى بيت أهله.

وأنا عائد مع عمى والعجوز، رأيت " الساقية " في دورانها البطيء،
أسمع صوت احتكاك الخشب العجوز الثقيل الذي يشبه الأنين، أتأمل
الحيوان الصابر وهو يدور ويدور ويدور.

- لماذا تحجبون عينيه؟ .. حرام عليكم

يقول العجوز: الأرض غالية يا بني .. ربنا يرجعكم لأرضكم بالسلامة
عجبا، أليست مصر كلها أرضنا ؟
لماذا إذن نشواق لتلك الأرض المالحة المشققة كل هذا الشوق؟

سالمة يا سالمة

طابور السيارات العائد المبتهج يغنى:
مع السلامة يا مهاجرين قاسيتوا يامام الفلاحين
غنيانا أيضا:

سالمة يا سالمة رحنا وجينا بالسلامة
تبلى الدموع شارب الحارس العجوز، شباب الفلاحين يتناوبون
احتضان عمى لحظة الوداع، العواطف صادقة، والدموع حقيقية.
على دراجتنا الرالى السوداء الكبيرة يطوف بى أبى شوارع المدينة
الخراب فى كل مكان، رائحة الحريق لا تزال عالقة فى الهواء، أنقاض
تسلم إلى أنقاض، لا أثر لحي المناخ، أكلت النار البيوت الخشبية الفقيرة،
شارع "عبادي" تهدم كله تحت قصف القنابل، "كباتن" الشاطئ
الخشبية، لم يبق منها سوى هذه القوائم المحترقة المتشبثة بالأرض، فى
حى "الإفرنج" صور "ناصر" على كل الأعمدة، (dawin eden) بخط
كبير على أرضية الشوارع، قاعدة تمثال "ديليسيبس" خالية.. رفعوا

العلم البريطاني فى يد التمثال المبسوطة، نفسه الفدائيون، كان لا بد
من قطع تلك اليد الإستعمارية.

رغم الشحم الذى وضعه الإنجليز عليها، نجح "الروبي" فى تسلق
السارية المرتفعة، أنزل العلم البريطانى، أحرقه فى شحمه وسط هتاف
الجماهير، هنا وقف "جمال عبد الناصر" قبل العلم المصرى قبل أن يرفعه
على نفس السارية عاليا، حرا وخفاقا، هنا فجر "عسران" "ويليامز"،
فى هذا البيت، أمام معسكر الإنجليز، خبأ الفدائيون "مورهاوس"..
دفنوه فى بئر السلم تحت بصر الأعداء وسمعهم .
وغنى "الصحبجية":

مورهاوس ليه بس إجيت
من لندن كده واتعديت
وبتظلم آه ولا خليت
وأهى موتك جت جوه البيت
مورهاوس ليه بس إجيت

- وضعنا أنفهم فى التراب يا بنى
- لماذا يكرهنا الإنجليز يا أبى ؟
- من نارهم .. ظنوا أنهم يستعبدوننا إلى الأبد
- لا أريد أن نهاجر مرة أخرى يا أبى

ثمن الحرية

فوق سطوح، بيتنا برج الحمام محترق ومهدم..
قال الجيران لأبى: قلنا لأخيك اذبح الحمام حتى لا تحترق المنطقة،
نرى الحمامة قادمة والنار ممسكة بها، تهبط إلى "البرج" مثل قذيفة
مشتعلة، كنا نقبض على الواحدة بصعوبة شديدة،
العجيب أن عمى لم يأكل من حمامنا طيلة الحرب
قال: كان يفرع من الناس ولا يأمن إلا لى وحدى.. صدقونى لم
أستطع.. وكنت أصدقه.
ولدت فى الشهر الذى ولد فيه الملك "فاروق"، قبل عام من نكبة
"فلسطين" قالوا: ماذا تريد أن تكون ؟
قلت: أريد أن أصبح ملكا
وجاء "جمال عبد الناصر".. خلع الملك وجعل كل المصريين ملوكا،
ارفع رأسك يا أخى، إلغاء الألقاب، إلغاء الامتيازات الأجنبية، القضاء
على الإقطاع وسيطرة رأس المال، الوطن للجميع.. لا بد أن أفرح

بالثورة، أنا الفقير ابن الفقير، رأيت بعيني ما فعله الخواجة "جورجي"
بأبي، وسمعت قصص الإقطاع مع الفلاحين، وقصص جنود الاحتلال
- السكارى- فى منطقة القناة، وشاهدت جنودهم - غير السكارى-
يقتلون أهل بلدى العزل تحت الأ نقاض، يحرقون الأرض، والبيوت،
والحمام، ويفرقون النساء والأطفال بلا رحمة فى بحيرة المنزلة..
غنيت مع الكبار فى "الضمة":

ولا عادش باشا ولا عاد بيه
واللى عملها راحت عليه
إيدن وبن جوريون وموليه
جاين يحاربونا على إيه
هو الكنال ده فى أراضيه
والا احنا خدناه منهم
دى قنبلة وضربت فيهم
واللى ضربها رئيسنا جمال
مبروك يا جمال

دفعنا ثمن الحرية، فحققت لنا الفرحة بها.. أنا الفقير ابن الفقير،
أصبحت مالكا لوطن رائع.. أرضه ومائه وسمائه.

بين موت الحياة.. وحياة الموت

فى موسم "السَّمان"، كثيرا ما أعود إلى البيت وفى يدي "سَّمانَة"،
أجدها دائما قريبة من يدي، لو أن الحارس العجوز هنا ليأكل من
"سَّماننا" اللذيذا

أذهب إلى المدرسة مبكرا، تسقط "الملَّيحة" مجعدة أمامي، بأقدامها
الطويلة ورأسها الصغير الذى يشبه رأس "الدجاجة"
- خنقت نفسها يا عمى.. مدت أصابعها الطويلة، قبضت على
الرقبة واستسلمت فى سكون

- الحرية.. أثمن ما فى الوجود

علمنى عمى كيف أريح الطير بالسلاح، أو بالريش، أنزع ريشة
جافة من الجناح، أرشقها فى الرقبة تحت العرقين الصناعدين إلى الرأس،
وأجذب مرة واحدة فيندفق الدم الساخن..

قال: عندما يشيخ "النسر" ويضعف، يعلو بأخر جهده فى
السماء، ثم يضم جناحيه، ويهوى إلى الأرض كالحجر.. لسنا

وحدنا من نملك القدرة على الاختيار، بين موت الحياة .. وحياة الموت.

لم أصوب نحو "هدد" فى حياتى ..

قال زوج عمتى: كان ملكا قبل أن يغتر، ويحوّله الله إلى هيثة الطير .. أنظر إليه وهو يحرك رأسه المتوج فى كل الاتجاهات، يخبط الهواء بجناحيه الكبيرين .. خبطتين سريعتين، ثم يطير قريبا من الأرض لمسافة قصيرة، قبل أن يقف فجأة محدثا ما يشبه الفرملة ..

ما زال الغرور فى دمه .

يقبض على البطة من رقبتها، يطوحها على ظهره، يصعد السلالم فى خيلاء، ثم يضعها أمام الباب فى زهو المنتصر، رافعا ذيله مثل راية، لا يفرق بين "بطنا" و"بط الجيران" ..

قالت الأم: إما أنت أو الكلب فى البيت

لسبب لا أتذكره أمسكت أُمى بالعصا، حاصرتنى فى زاوية الحجرة، وقف الكلب بينى وبينها متحفزا ومزمجرا ..

كلب بلدى أصفر اللون، فيه بقع بيضاء فى آخر الذيل، وعلى إحدى أذنيه وفى الصدر، يقاتل بشراسة، أصبح مشهورا فى المنطقة .. ازداد أطفال الشارع احتراما وابتعادا.

المنطقة الجافة من البحيرة، القريبة من البلدة، مقسمة إلى أحواض واسعة ..

مستندا إلى ردم ممتد فى خط مستقيم، يتقاطع مع خط الأفق، يضع
قبعته الخوص العريضة فوق وجهه، ينظر من تحتها، إلى كلبه الذى
يتقافز حوله فى توتر قلق، يلحق وجهه ثم قدميه، ثم ينصرف إلى مطاردة
خنفساء سوداء كبيرة، هبطت الشمس وهو مستغرق فى التفكير،
إلى أين يذهب بهذا الكلب ؟ الذى جلس منتصبا مثل أسد، وناظرا
فى عينيه متحفزا، منتظرا أول بادرة، حتى يبدأ اللعب والمصارعة..
ينصرف مرة أخرى إلى الجرى المنفرد، والدوران السريع والانقضاض
الوهمى، بعد أن يثس من مشاركة صاحبه، إلى أين يذهب؟ وقد قالت
أمه العنيدة: إما أنت أو الكلب فى البيت..

أفاق على ضوء "الفانوس"، صوت أبيه مختلطا بأصوات أخرى
يعرفها: هات الولد.. أين الكلب؟.. أين الكلب؟ الأمر لله وحده.
كلب أسود غريب وشرس، أجذب كلبى بعنف، أضربه بعصبية
زائدة، أمنعه من المواجهة، أذهب إلى شاطئ البحيرة الجنوبي، لم أعد
أنام جيدا، كوابيس مرعبة وإحساس بالمهانة.

لم يستجب لندائى هذه المرة، هجم بسرعة خاطفة على الكلب
الدخيل.. غبار مثار وأصوات وحشية وقاتل حتى الموت، ألقيت
بجسمى بين الوحشين، أنقذت كلبى من هلاك أكيد..

هل أنقذته فعلا ؟

لم يعد ينظر في عيني .. كثر شروده .. قل طعامه ..
أصبح مغلفا بالحزن .
قال أبي : القوة في القلب .. أنت كسرت قلبه .. كان يجب أن
تتركه يكمل اختياره
يحاول أبي أن يخفي دمه ، وأنا أسوي التراب على صديقي ،
لماذا تحجرت الدموع في عيني ؟
- أبك يا ولدي .. أبك
جاء البكاء متأخرا .. جاء طوفانا من الدمع .. والندم .

كَمُونَة

ماتت أمه وهى تلده، تركه أبوه، أوشك على الموت لولا أن تفجر
اللبن فى صدر العجوز.

عندما تغضب منه تقول: أصلك يرد عليك يا "فرهود"
تقول أمى: "فرهود" عرق يهودى فى أصله..
لما حضره الموت قال الناس: اسلم يا "فرهود" .. اسلم يا "فرهود"..
مات ولم يسلم .. كان عنيدا مثل "بغل"
يقول عمى: "كمونة" ذئب

يتمدد بجوار الخيمة على شاطئ البحر، ينتظر حتى تهلكنى
السباحة فيقوم لمصارعتي، أكبر منى بعامين، يبتهج عمى عندما يفشل
"كمونة" فى أن يصرعنى، ظل يحرق فى الشمس حتى أكلت عينيه،
لم تفلح جدتى فى منعه، بعد أن كبر وفهم، دأب على إغواء الأطفال
إلى النظر فى قرص الشمس، يومها ضربنى أبى وقال لأمى: قريبك
يريد أن يعمى الولد، امنعیه من القدوم إلى البيت، لم تمنعه أمى، ولو
شاء أبى منعه، لمنعه .. كانا يخافان إيذاء اليتيم .. وغضب العجوز.

الكنال الداخلي

كان الوقت صيفاً، خلع "كمونة" ملابسه، وانتظم فى طابور الأطفال القافزين إلى الماء، يتقاطرون فوق "الأزأ"، ذى العوارض الخشبية المهترئة، والقوائم الحديدية التى أكلها الصدأ.

علمتنى هذه التجربة الاحتراس، وعدم الانقياد الأعمى.. وجدت نفسى فى طابور الأطفال، أفقت على حافة المرسى، فى مواجهة الماء البشع، لامجال للتراجع، دفعنى الذى خلفى إلى الماء المظلم القذر.. أية شياطين بحرية تتقاذفني، مسوخ سوداء، عيون مظلمة شوهاء.. امتلأ جوفى بالماء والطين والمازوت، وصلت إلى القاع، وسط أكداس من المخلفات البحرية والنفايات، أحبال، علب صفيح، وهياكل معدنية، مثل "كلابيب" العفاريت، امتلأت مثل زجاجة غارقة.. أوشكت على السكون الأخير، لولا أن اصطدمت بقائم المرسى الحديدي، احتضنته مستميتاً إلى أعلى، لم يعد فى جسدى موضع إلا ومزقه "الحشف"

البحرى والحديد الصدي ..

- ما الذى تفعله بنفسك يا بنى تريد أن تموت؟

- سامحنى يا أبى لن أفعل ذلك مرة أخرى

جلس الرجل القرفصاء على رصيف المقهى فى شارع الروضة،

ممزق الملابس فى الشتاء ..

قال الناس: كان رجلا محترما له بيت وتجارة وأتاه "لطف"

، مات ولده فى "الكنال" الداخلى

يحرك يديه فى الهواء، يقفز الفرع من عينيه الواسعتين العميقتين -

صدقونى رأيت "العفريت" فى قاع "الكنال" الداخلى، يأكل الأسماك

و"العيال" .. صدقونى: "الكنال" الداخلى مسكون بالعفاريت .

يمد يده للرجل بالرغيف "الفينو"، المحشو بالجبن الرومى والزيتون

الأخضر: أصدقك - والله العظيم - أنا أصدقك.

يختلف الماء فى "القنال الداخلى" عن ماء البحر، وأيضا عن ماء

البحيرة، فهو إصبع مائى يمتد فى جوف المدينة من جهة الجنوب،

تكتمل به دائرة الماء حولها .

قمت بتصميم "عدّة" تشبه عدة صيد "الخلل"، إلا أن يدها أكثر

طولا، حتى أصل إلى "البكلّويز" الأسود والأحمر الكبير، من قاعه

المنحدرة إلى العمق، عند نقطة التقائه بماء البحيرة، من جهة "الهويس"

غربا، وبماء "قناة السويس" المتسلل إليه من تحت كوبرى "الرسوة" شرقا.. كثيرا ما وقفت على هذا الكوبرى، وقت "المد" أو "الجزر"، أرمى خيطى الممتلئ بالسنانير الخالية من الطُعم، أربط فى نهايته "ثقل" الرصاص.. أجذب فجأة وبمعكس اتجاه الماء، تعلق السمكة من الرأس وأحيانا من البطن أو الذيل.

وجدت فيه "صدفات" نادرة جميلة، لم أر لها شبيها، لا فى البحر، ولا فى البحيرة، ربما كانت بقايا لمخلوقات بحرية لذيذة منقرضة، أكلها أطفال محظوظون فى أزمنة سابقة.

ينتهى القنال الداخلى متعامدا مع شارع "مائة"، ولو انتهى إلى البحر، لكان امتداده الطبيعى شارع "الروضة" (سوق السمك).

ماؤه شبه راكد، لوثته مخلفات السفن الصغيرة، واللنشات التى تعمل بالمازوت، والمتراسة على حافته الغربية فى تراخ وكسل، وسط "مناشير" ضخمة، يستخدمها نجارو سفن، تبدو قبل أن يكتمل بناؤها، مثل هياكل عظمية "لديناصورات" أسطورية. يزداد التلوث كلما اقتربنا من "الأزأ" الخشبي، على شارع "مائة" جهة الشمال.

من جهة الشرق، تحده أرض "الجولف".. تفصل بينه وبين "قناة السويس".. فيها معسكرات الإنجليز، قبل أن يطردهم "جمال عبد

الناصر"، ومصنع "بزوك بوند" لتعبئة الشاي، أمه أيضا "جمال عبد الناصر" - عمل فيه أبى ملاحظا للتعبئة والتجهيزات بعد أن أغلق محل الحلويات فى شارع "كسرى" -، كذلك نادى "المريخ" الرياضى، مصنع تجفيف البصل، ورش، عنابر ضخمة للتخزين، وسجن بورسعيد..

من جهة الغرب تحده.. عزبة "فاروق".

عزبة فاروق

مساكن خشبية فقيرة، أذهب إليها لشراء الرصاص الحى، الذى ملأ المدينة بعد الحرب، فقد أطفال أطرافهم وأحيانا حياتهم ومع ذلك أذهب إلى العزبة، أضرب الرصاصة من المنتصف، تحت رأس "المقذوف" قليلا.. أفصل "المقذوف" عن "المظروف"، شىء يشبه تفكيك الألغام، لحظات حرجة أدمنتها.. أشعر أنى أسير على الحافة - وحدى - فى مواجهة الموت، مزيج من الجنون والشجاعة والمهارة، والمقامرة، والخوف والتهور، والتوتر اللذيد.. أفرغ البارود فى كيس ورقى أضعه فى جيبى - فله استخدامات أخرى أكثر جنونا - أضرب الكبسولة "الفشنك" بالمسمار، فتحدث الفرقعة والانتشاء .

أشترك مع "السماكري" فى تصميم المقذوفات، دبابات، صواريخ، طائرات.. لم يعلم أبى أننى وصلت إلى أعماق عزبة "فاروق"، حيث عزبة "النحاس"، وهى أعشاش من الصفيح لا يكاد يسثر شيئا، يتحول سقفها فى الشتاء إلى "دش" بارد، والطين حولها بحيرات متصلة لها رائحة المجارى .

كان لأبى بيت على شارع "مائة" .. آخر حى "العرب" الفقير،
وبداية حى "العزب" البائس، اشتراه بثمانين جنيها، أجّره للغرباء من
"الصعايدة" الوافدين.

قال للبائع: ثمانون جنيها مبلغ كبير، لقد اشتريت بيتا فى شارع
"كسرى" بمائتى جنية.

قال، البائع: جنية ونصف فى الشهر مبلغ لا بأس به
كنا نسكن وقتها بيت "الأمين" .. قبض أبى شهرا، فى الشهر
التالى لم يجد المستأجر، وجد المنزل مكدسا بعدد كبير من الصعايدة،
وقد رفضوا دفع الإيجار.

رأيت أبى يدس "مقطع السمنية" تحت حزامه، ويأخذ معه "جالون
الجاز".

قالت أمى: اذهب يا ولد ناد على عمك
لم أذهب، تبعته أبى وهو يختصر المسافة من آخر شارع "الأمين"
إلى عزبة "فاروق"، مخترقا عزبة "النحاس"، و"زرايى" البصل وقطعان
الماعز والخراف .. لم تكن مساكن "ناصر" قد بنيت بعد فى هذا الفراغ،
الذى يفصل "العزبة" عن شارع "الأمين".

قال للصعايدة: ستخرجون وإلا أحرقت البيت عليكم
أفزعهم التصميم فى عينيه، للموا "خلجاتهم" وخرجوا مسرعين،

يتعثرون في بعضهم، وسط ضحك الجيران ..

قال الناس : هذه بيوت للسكن يا عم وليست للإيجار

قال أبى وفى عينيه لمعة الانتصار : إنه بيتى كيف يجرؤون؟

قالت أمى وهى تنظر لأبى فى حب : ألم تخف وأنت وحدك؟

قال أبى فى تواضع : صاحب الحق قوى يا "أم العربي"

أحضر أبى الجير، كنت سعيدا وأنا أساعده فى دهان البيت، بعد

الدهان، أعلق الأحبال فى مراين السقف، و"أتمرجح" أنا وأختي،

و"نتنطط" على السطوح، ولم يقل أبى شيئا...

لم أحزن لما باع البيت، فقد رأيت راضيا.

الحرقة .. والغرق

يقول الكبار: ستنتهى بورسعيد إما "بحرقة" أو "بغرق" ..
يقصدون بالحرقة "حرقة" شديدة شاملة، صاعقة وعاصفة، تصبح
المدينة بعدها أثرا بعد عين ..
ويقصدون "بالغرق" أن يبتلعها البحر فجأة، بحجرها وناسها
فلا يبقى منها من أثر ..
شئ شبيه بأسطورة "أتلانتس" فى التراث الإنسانى، وبأسطورة
"تنيس" فى تراث المنطقة.
منذ مئات السنين حدث زلزال مهول، أهاج البحر هياجا شديدا،
فاقتحم اليابسه بطوفان هائل، أهلك الزرع والنسل، وأغرق المدن
والقرى، طمر كل شئ ثم عاد إلى مريضه فى الشمال، مخلفا وراءه
تلك البحيرة الرائعة، وتلك الشطوط الأسطورية.
إنها جدلية الحياة والموت تتجلى فى أوضح صورها، وسبحان
مخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى، وجاعل الماء أصل
كل حى ..

كان لا بد أن يصدق هذه "الأسطورة اللعنة" أجدادنا الأقربون، ممن
حفروا القناة سخرة.. فلا أجداد لنا سوى هؤلاء الضحايا المساكين.
حينما احترق المناخ فى المرة الأولى - قبل الحرب - ظن الناس أنها
"الحرقة"، ولم يصدقوا، إلا وهم مكдسون فى الساحة الشعبية، فى
خيام أقامتها الحكومة على النجيل الأخضر..

يومها قال له "كمونة": تعال.. سأطلعك على شىء جميل
رأى من فرجة الباب الكبير غير المحكم، الفتيات الناضجات
يستحممن جماعة، تحت "الأدشاش" المتجاورة المخصصة للرياضيين،
رأى لأول مرة فى حياته هذه المنطقة المعشبة أعلى الساقين، والنهود
الرجراجة البكر تهتز فى صخب التزاحم، تعجب يومها لوجه كمونة
المحتقن، مرت الأيام واحتقن وجهه، كلما تذكر هذا المشهد التاريخي،
وكلما زار الساحة الشعبية، اتجه بصره إلى ساحة الاستحمام الكبيرة
بأدشاشها المتجاورة، يستنشق عبق الأيام الخضراء.

لم أعد أصدق حكاية "الحرقة" هذه، فقد اعتدنا الحريق مع
تكرار الحروب، أما مسألة "الغرقة" فالأمر مختلف، فهذا الوحش
الجاثم تحت أقدام المدينة من جهة الشمال، يملأ العين والقلب بالفرع،
كثيرا ما يهجم على المدينة، محتشدا وهادرا، يكسر الجسور، يخلع
الأبواب، يخمشها بأظافره وفمه المرعب المفتوح ذى الأنياب، رأيت

غدره كثيرا، وما زال يفاجئني، ولا زلت أرهبه.

نخرج للصيد شتاء في الصباح، نراه هادئا كطفل نائم وديع، وفي لحظة واحدة ينقض على الأرض، يقضمها تحت أقدامنا، يعدو خلفنا نحو الجسور والأرض المرتفعة، يزمجر في توحش وإصرار قبل أن يعود إلى مربضه في الشمال، مخلفا وراءه أمواها كثيرة، تغمر الأرض الساحلية المنبسطة أمامه، مكونة بركا ومستنقعات شاسعة وممتدة حتى لتكاد تصله بالبحيرة، ليست أسطورة حكاية الفرقة، فالبحر وحش حي، نلمس أنيابه وأظافره.

أرى الماء في أحلامي، يرتفع من طابق إلى طابق، حتى يصل إلى سطوح بيتنا، أعيش لحظة ابن "نوح" وقد حاصره الماء من جميع الجهات.. أنسى دائما تجهيز "الطوف" الذي يحملني أنا وأهلي وجارتى الصغيرة الجميلة.

كابوريا

خلف مطار "الجميل" وعلى ارتفاع نصف متر، يصطدم ماء البحيرة بالسور .. يقفز على الأحجار الصفراء المديبة، يفكر في التراجع، تحت تأثير الألم والإجهاد.

قال كمونة: سأسير مع الناس على الجسر "امش سنة ولا تخط قنا"

لو استمر امتداد الصخر بهذا الشكل فهو هالك، فلن يستطيع الاستمرار أو العودة، بجانب هذا الإحساس بالخوف وترقب المفاجأة .. إحساس من يسير في ماء لا يعرفه، ربما وقع في حفرة مما خلفته الحرب، أو يعلق "بمتراس" قديم أكله الصدأ، ربما وطأ "لغما"، ساعتها سيقولون: ما الذي أصابه حتى يسير في هذا المكان المقطوع؟

الماء ساخن في هذه المنطقة، وشبه راكد ..

الحمد لله، انتهى أخيرا الحاجز الصخري، أخيرا لامست قدمه الرمل الدافئ الطري، آلاف من "الكابوريا" منزوعة الدروع، ملتصقة

فوق بعضها، اثنتان اثنتان فى سكىنة الخلق الأول.. لا تذهبن بك
الظنون، هذه القشريات اللذيذة تستبدل دروعها كما تستبدل الثعابين
جلدها، تنتبذ مكانا قصيا لا يرتاده الناس هادئا ودافئا، بل ساخنا، تعافه
الأسماك صغيرها وكبيرها.. تقصده بالفطرة السليمة طلبا للسكىنة
والأمان، من لا درع لها تحتمى تحت من عندها فضلة من درع .
مواضع أقدامه هى الأولى فى المنطقة، سنأكل اليوم "كابوريا"،
يفرس السبخ الحديـد المـثبت فى اليد الخشبية الطويلة، اثنتان اثنتان، ما
ألذ هذا اللحم الطرى !

قال كمونة: سأذهب معك فى المرة القادمة

قال عمه: رأيت الموت فى هذه المنطقة .. أسند البندقية على حافة
السور من جهة البحيرة ووجهى إلى داخل المطار، أصطاد الهابطين
بالمظلات، قتلت منهم الكثير، رأيتهم وهم يأسرون "مهران"، ويقتلون
جارنا "السيد جوده" .. رفض أن يسلم سلاحه الخالى من الرصاص،
هجم عليهم بيديه المجردتين، أنقذنى هذا الحاجز الصخرى فى الماء،
لم يستطيعوا العبور إلى ، ظللت ثلاثة أيام فى الماء بلا طعام .
أحب الاستماع لعمي، أفتح عيني، أرى ما يقول مجسدا أمامى
صوتا وحركة.

قال الجيران: إنه السبب فى حرق المناخ كله.. يقف على سطح

المنزل يطلق على الطائرات المغيرة، ثم يهبط إلى المنزل الذى يليه..
أحرقوا المناخ كله ولم يقتلوا عمى.. قتلتها سيارة عسكرية مصرية، فى
شارع "محمد علي" أيام "السبعة والستين" السوداء قال "المستبقون"
فى المدينة: بعد كل غارة، يمر على البيوت بيتا بيتا، يطمئن على الناس،
يقدم العون لمن يحتاج.

كان متأكدا أن نهايته ستكون بقنبلة أسرائيلية.. سيارة عسكرية
مصرية! صحيح "من مأمنه يؤتى الحذر".. ربما ظن أن السيارات
العسكرية المصرية غير قادرة على قتل المصريين.. خرجت المدينة
كلها فى جنازته، إنها الفجيعة الكبرى أن يأتى الموت للشخص غير
المناسب، فى الوقت غير المناسب، وبالوسيلة غير المناسبة.. أستغفرك
يا رب.

ابتعد عن البنات.. يا ولد

يجلس "كمونة" أمام "صينية البلي" أضع ما أكسبه فى جيوبه،
أنظر إلى هذه الأجسام الكبيرة التى نلعب معها، عند الإشارة المتفق
عليها، يجرى "كمونة" بما يحمل فى اتجاه، وأجرى أنا فى اتجاه آخر،
يجزى الجميع خلفي، فى كل مرة يتم اللعب، فى ظل تلك الظروف
القاسية.

- إلى الحمام أولاً.. اغسلوا أيديكم وأقدامكم.
- قبل دخول البيت، نخبئ كنزنا فى الرمل الأصفر النظيف، تحت
الأساس المسلح للبيت الجديد.. نأكل معها طعامها الشهى.
- لماذا يختلف طعامك عن طعام جدتى يا أمى؟
- ألا تحب طعامى يا ولد؟
- طعامك ألد طعام فى الدنيا ولكن طعام جدتى شىء آخر
- وحيدة جدتى، فى هذا البيت الذى أعطاه لها "جمال عبد
الناصر"، تدعوله فى كل صلاة.. دائما كانت تصلى..

قال مسئول المساكن الجديدة: أنت وحيدة يا "حاجة" وبيت فى
"الحرية" مناسب لك .

بعد احتراق "المناخ" ذى البيوت الخشبية، التى يسكنها الصيادون
والفقراء، عاد الناس من الهجرة الأولى، وجدوا هذه المساكن جاهزة،
أقاموا قليلا فى معسكرات "الجولف" التى جلا عنها "الإنجليز" .. عدنا
لبيتنا فى شارع "كسرى" .

أذهب إلى الجولف، يملؤنى الزهو وأنا راكب دراجة أبى الرالى
السوداء الكبيرة، والناس ينظرون إلى فى دهشة وإعجاب .. أنطلق فى
تلك الممرات "الأسفلتية" الممتدة بين عنابر "الكامب" الإنجليزى، يدور
البدال فى الهواء، ألمسه فى أقصى ارتفاع له بأطراف أصابع قدمي،
أميل ذات اليمين وذات اليسار بكل جسدى النحيل، حتى أتمكن من
دفعه لدورة أخرى .. بنات صغيرات فى مثل سني، أجلس من يأتى
عليها الدور أمامي، على ماسورة دراجتنا العملاقة، لا أجد تفسيراً
لهذا الإحساس المبهج، إنها القشعريرة الغامضة، الاكتشاف الأول لهذا
الكوكب الأنثوى اللذيذ ..

ابتعد عن البنات يا ولد .. يصيح عمى، وقد ارتفع حاجباه فى
غضب .. ابتعد عن البنات يا ولد .. لم أبتعد، من يومها يسعين إلى

وأسعى اليهن، موغلا في ذلك المجهول السرمدي، هذا السراب
المفضي دائما إلى سراب..
أقود دراجتنا، ذات الماسورة العملاقة، بعيدا عن الممرات المسفلتة..
بعيدا عن أعين الناس، وبعيدا عن عيني عمى.. الغاضبتين.

أم الدسوقي

وهى تتسلم بيتها الجديد فى "الحرية" تقول للمسئول: أنا لست
وحيدة.. معى "كمونة" ابنى

- ليس ابنك يا "حاجة" .. أنت وحيدة

مات زوجها مبكرا، وتفرق أبناؤها: المراكبى أقام فى بيت أبيه فى
"النسايمة"، الأصغر ركب البحر الكبير على مراكب "النابولطان"..
أما الأكبر فقد حمل "عدة" أبيه واتجه إلى البحر.

يأتى إليها كل جمعة بعد الصلاة.. شيخ قريب من عمرها، نفس
البياض، نفس التجاعيد، إلا أنه ملوح بحمرة البحر..

يقبل يدها، يحتضنها فى حنان ورفق، وحرص من يحتوى شيئا
ثمينا وهشا، تجلس فى جواره، وفى عينيها فرحة المرأة بالرجل، والأم
بالابن، والطفلة بأبيها.

الثوب الأبيض الناصع البياض، العمامة البيضاء الرقيقة حول
الطاقة البيضاء، رائحة الكولونيا الفقيرة، التى تسبقه قبل أن نراه،

خفيض الصوت، لا يزاحم أحداً في حديث، وإذا سئل، أجاب
بصوت مكتمل حلو، واضح النبرات .

بحر زاخر من العلم.. قرآن كريم، أحاديث نبوية، أشعار، تصوف،
أمثال، تاريخ .

على قهوة "الخلايلية"، يرتفع الصوت بين الوقت والآخر "أسأل
عم الدسوقي" كان حكيمهم وقاضيهـم .

أكلت في بيته، "الكابوريا" المحشوة بالبصل، والمدفونة في الأرز،
وأكلت في بيته أيضاً، السمك المملح في الرمل.. قليل من يعرفون
كيف يملحون السمك في رمال الشاطئ .

رأيت في بيته كتباً قديمة، نظيفة ومرتبّة، يضعها في مكان عال
بجوار المصحف الشريف.. يحب "جمال عبد الناصر"، يتكلم عنه
كما يتكلم عن "أبو زيد الهلالي" و "عنتر بن شداد".. يقول وهو
حزين:

- لن يتركوه يا بنى

- من يا خالى من؟

- الكفار يا ولدى الكفار

جنة الفقراء

صممت الحرية على هيئة شرائط طويلة من دور واحد.. باب ينفتح على صالة مفتوحة على ما يشبه المطبخ، ثم آخر اليسار باب الحمام، وفي أول اليمين باب لحجرة واسعة، وفي منتصف الحائط الخلفى للصالة باب ينفتح على حديقة بنفس مساحة المبنى.

يفرح الناس عندما تقبل عربة "الاستعلامات" فى الغروب بتلك الشاشة الفضية الساحرة، تقيمها فى الأرض الفضاء المنبسطة، الصغار فى الأمام، والكبار خلفهم.. إنها جنة الفقراء.

احتفظت جدتى ببعض الأدوات الجديدة، التى تسلمتها مع المسكن الجديد، وضعتها فى علبة، لا أدرى ما ذا فعل بها "كمونة" حينما صارت إليه.

نظيفة جدا وناصعة البياض، وكذلك بيتها، تجلس بجوار الباب من الداخل، تعلق طرف المغزل فى مقبضه، تغزل أكياس الصيد التى يستخدمها صيادو "الخلول".

إنهم بعض أهلي، هؤلاء المنتظمون مثل عقد بشرى بطول ساحل البحر، من المدينة حتى بوغاز "الجميل"، لوحة فرعونية حية.. الظهر المشدود للخلف، الذراعان المفرودتان المتعامدتان على ذراع "العدة" الطويل، المسافة الثابتة بين الواحد والآخر، ظهرهم للغرب دائما.. بعكس حركة المياه، يتقاطرون في اهتزازة رتيبة، لم يقهرهم الموج الذي أكل هذه البيوت الشاطئية الغرقى.. نصفها خارجها، ونصفها يعول فيه فكه المفترس، يسحبون محاريتهم التي أصدأتها ملوحة البحر، تيمة بشرية تعلقها المدينة على صدرها، تحفظها من عوادي الطبيعة والناس، يفرغون أكياس جدتى في "غرابيل"، يطوحونها عكس اتجاه الرياح، يفصلون الثمار عن القشور، إنهم يحرثون البحر.. إنهم يحرسون البحر.

أبو العربي

ابتعد عن سوريا ولد..

يصيح فيه الجيران من سكان "الأمين"، وهي مساكن موازية لمساكن الحرية، من ثلاثة أدوار، تطل على حدائق داخلية متقابلة ومتجاورة ومتصلة بالدور الأرضي، تسلمها أصحاب الوظائف من سكان المناخ المحترق في الحرب.. ومنهم زوج عمتي .

عندما تم نقله بعد الحرب مباشرة، إلى القاعدة البحرية في "الإسكندرية"، واجهته مشكلة الإيجار، وهو رجل ذو عيال، قمنا بتأجير بيتنا في شارع "كسرى"، وشغلنا بيت "الأمين" عدة سنوات، كانت كافية لتوطيد علاقتي بالبحيرة وفضائها الخلاب، حتى بعد أن عاد وأخلى لنا له بيت "الأمين" ورجعنا ثانية لبيتنا في شارع "كسرى".
رجل عملاق، ذورأس كبير وأنف ضخمة وروح طفل.. "أبو العربي"
هكذا يناديه الناس، العجيب أنه لم يسم ولدا من أولاده "العربي".

حكاء من الدرجة الأولى، أجلس أمامه بالساعات وهو يتكلم،

ولا يدع فرصة لأحد أن يقاطعه أو يلتقط أنفاسه، والقصص أنواع..
قصص "الفتونة" مع "فتوات" "المناخ" .. قصص "النايلطان" (حينما
عمل عليها مسئولاً عن الماكينات) ثم قصص العفاريت والجنان.
لم يكن في حاجة إلى تلك المبالغات الضخمة التي تجعل من
يستمع إليه يدارى الابتسام، فقد رأيتُه فعلاً ينزل إلى الشارع بالنبوت
في شجاعة، ولكنني أكنتم ضحكى عندما يقول: أمسكت "طه
الجندي" فتوة "المناخين" من قفاه، ولم أتركه إلا بعد أن قال: "أنا مرة".
أما قصص الجنان والعفاريت فمنجم لا ينفذ، ولو كتبت لفاقت
قصص "ألف ليلة وليلة".

يجلس عصراً أمام البيت، في يده كوب الشاي الكبير، وفي فمه
السيجارة، يراقبنا ونحن نلعب على النجيل الأخضر: "أول خرا"
"اللجم" "ركبت خلولها" "جنذر" ..

"عرنوس" "الهادي" "صبري" "كركور" "العربي الوزير"
و"حمدي الوزير" .. يرسل أفضل السمك لبيت جاره الشيخ "
سيد الوزير" هذا المنشد العظيم .. يتكلم عنه كما يتكلم عن أولياء
الله الصالحين وأصحاب الكرامات، سحره الشيخ بإنشاده العبقري
للمدائح النبوية الشريفة .. في الموالد، والأفراح، وحفلات الطهور،
والعودة من الحج .

يخاف الظلام.. يضحك الجيران حينما يعود من قهوة "الحسيني"
فى أول شارع التجارى، التى تجمع أقطاب العائلة ليلا، ويصبح بأهله
أن يضيئوا السلم.

بيته فى المناخ متحف حربى، بل متحف أحياء بحرية.. وإن أردت
الدقة متحف أموات بحرية، هذه "الإستاكوزا" الضخمة المعلقة على
الباب بشكلها البشع، وهذه القواقع الكبيرة النادرة، كذلك تلك القطع
الحديدية المتأكلة من مخلفات الحرب العالمية.. مسدسات، ودانات لم
تنفجر، وقطع من الآثار البحرية الكبيرة والصغيرة.

ارتدت أمى ملابس الخروج فى الصباح، غطت وجهها بالبرقع
الأسود ذى القصبة الذهبية، ألبستنى ملابسى فى سرعة واضطراب،
قالت: هيا نذهب لأبيك فى "المنشية"
تهلل وجه أبى وأنا مقبل عليه..

قلت: أمى تنتظرك فى الميدان، اصفر وجهه، خلع فوطة العمل،
ألقاها على الأرض وخرج مسرعا وأنا وراءه،

قال فى فزع: خير يا أم العربى
.. لم يكن من عادتها أن تخرج من البيت وحدها

قالت: وجدت صندوقا خشبيا تحت السرير
قال: نسيت أن أقول لك.. هذا صندوق "أبو العربى"، أحضره

بالأمس.. سيأخذه عندما يعود من "النايلطان"

قالت: هل تعرف ماذا يوجد فيه؟

قال: لم أفتحه

على قهوة "الحسيني" ينظر أبى إلى "أبو العربي" ويضحك.. يهزه

ويقول: قنابل تحت سريرى.. أنام على قنابل يارجل؟ !

حينما يزورنا "أبو العربي" تنظر أمى فى كل ما يحمل، حتى فى

"قراطيس" الفاكهة .

يحكى عن عروسة البحر التى تزوجته، واشترط عليها أن يعيش

معها شهرا، ومع أهله شهرا، أما قصة المدفع فذلك بعد أن عمل فى

القاعدة البحرية، لا بد أن تتحسس بأصابعك فى كل مرة، هذه المنطقة

اللينة فى رأسه قبل أن يحكى الحكاية، فعندما وقع على رأسه المدفع

الذى يزن عشرين طنا بقى بين الحياة والموت فترة طويلة، لولا عناية الله

وبراعة أطباء القوات البحرية، نزعوا العظام التى انغrust فى مخه،

وتركوا تلك المنطقة اللينة فى رأسه، فهو الخبير الأول فى محركات

الزوارق الحربية "وتوربينات" الصواريخ.

"والعهدة على الراوى" .. قائد القوات البحرية بنفسه زاره فى

المستشفى واطمأن عليه "والعهدة على الراوى"

بدأت القصة باصطدام رأسه "بالبيجة"، ثم حدث تعديل بسيط

مع تكرار الرواية، فالذى سقط على رأسه، هو المدفع نفسه الذى يزن
عشرين طنا.

ينظر أبى إلى تلك المنطقة المنخفضة فى رأسه مشفقاً..
المعجب أنه بعد أن ماتت عمتى وتزوج أولاده، وجدوه
قادمًا بفتاة صغيرة من الريف، أولدها عددا من الأطفال يماثل
ما ألجئته عمتى.

ابتعد عن السور

ابتعد عن السور يا ولد...

"كمونة" هو السبب، يحاول صيد العصافير "بالنبلة" من حدائق
"الأمين" فيكسر زجاج البيوت.. كنت ماهرا فى صنع هذه "النبال"،
من عجل الطائرات الداخلى الأحمر السميك، الخطان المتوازيان تماما،
و"اللقمة" الجلد اللينة بحجم الحصاة الصغيرة، والمقبض الحديدى
المجدول فى تناسب واكتمال..

لم تعد مادة من سلك وجلد، إنها جزء من أعضائي، لها حساسية
أصابعى، وتوثب روحي، وثاقب رؤيتى .

أخرج إلى الأرض الفضاء، الفاصلة بين المدينة والشاطئ الجنوبي،
أنصب "الفخاخ" التى أعمارها بالديدان .. "المنيح" الذى أجمعه هو
و"القراص".. هذه الحشرة الحمراء التى تشبه العقرب الصغير، من بين
الأحجار الطينية المألحة .

يمر الوقت سريعا، وهو "يُدْرَج": "البقيّر" "الدقناش الصُرَيْطِي"

"الدقناش الأقرع" "الزرزور" "الحَمِير" "النقرطان" .. تنسيه النشوة،
آلام تلك المناكير الجارحة المستميتة وهو يفكها من الفخاخ .. لو أن معه
بندقية!

حارة البكري

قبل سفره زارنا الخواجة فى محلنا الجديد
— أحوالك لا تعجبني يا محمد لا زال فى مقدورنا أن نصحح
الأمر

— أشكرك يا "خواجة" لقد نسيت هذا الموضوع
أبدا، لم ينس أبى هذا الموضوع طيلة حياته، أصبح عليه أن يعمل
أربعة وعشرين ساعة تقريبا فى اليوم .

فى النهار "المعمل" و"الفرن" .. المعمل: طاولة رخامية ضخمة
تملأ الفراغ القليل بين حائط الحمام الصغير وحائط الحجرة الكبرى،
فى بيتنا فى حارة "البكري"، فوقها رفان كبيران على الجانبين، واحد
عليه "عدة" الحلويات التى يستخدمها أبني، والآخر عليه أدوات
الطبخ التى تستخدمها أمي، أما الفرن: فهو فرن "عزت" فى شارع
الحميدى .. ومع أول الغروب إلى آخر الشروق فى محلنا فى شارع

"كسرى" ننتظر الرزق الصعب، عمى أيضا هذه الإجهاد وقلة الرزق..
- سأسافر "للسويس" سأعمل عند ابن عمى فى "أستوديو"

التصوير

- وفقك الله يا أخى

عناق حار ووداع سريع

نظر أبى إلى وقال: جاء وقت الجداؤها الرجل الصغير..

بيت صغير فى حارة "البكري" وشارع "كسرى"، يملك كل طابق ساكنوه، نسكن الطابق الأخير، حجرة عمى المسافر على السطوح، هناك أيضا الحمام والأرانب، وخيمة "البلاج" ملفوفة بعناية حتى يأتى الصيف، وأيضا برميل السردين المملح الخشبى الكبير، وبرميل السردين المملح الخشبى الصغير، الكبير خزين العام، والصغير بملحه الخفيف للاستهلاك خلال الموسم، فيه تصبح المدينة كلها برائحة السردين "الدهنة" و"المبرومة"، يأتى الفيضان وتتعكر مياه البحر "بالطمي" الأحمر، وجذوع الأشجار، وكثير من مخلوقات الله الغارقة فى النيل، وتمتلئ الأفران بكل أنواع السردين: المشوى فى "الصاج" والمشوى على "البلاط" و"السنجارى" و"الصينية".

يعبأ السردين المملح فى صفائح مربعة مغلقة بالقصدير، تحملها سيارات النقل إلى كافة أرجاء مصر.

فى موسم السردين تشبع المدينة وتتزوج البنات وتتعمّر البيوت،
وكما يخزن الفلاح الحبوب لعمار بيته طوال العام، نخزن نحن
السردين المملح .

هناك أيضا موسم الشبار الأخضر، وموسم الشبار الأبيض،
و"اللوت" و"الحناجل" و"الحلبوش" و"الدينيس" و"اللاج" و"النقط"
ولكن موسم السردين هو العيد الحقيقى .

تجربة غير عادية، أن تعيش وحدك فوق الناس، مع حمام يألفك،
يقف على كتفيك ويأكل من يدك، وأرانب تستأنس بك، وتتشمم
أطرافك .

المدينة مختلفة من فوق السطوح، الفناء ودورته الرتيبة، الهواء
المصفى، الوحدة، الوقت الكافى لاستكشاف الذات والتأمل، ورزم
من مجلات الأطفال وشخصياتها الحية.. "ميكي" "تان تان" "تم تم"
زورو"، نشتريها بالميزان ونخزنها لزوم المحل، أدمنت القراءة، لا بد أن
تمر كل ورقة تحت عيني قبل أن تصل إلى يد الزبون .

بعد سفر عمي، تبدأ نوبتى قبل الفجر بساعة أو ساعتين، ليستريح
أبى حتى ميعاد المدرسة.. بطئ هذا الليل وثقيل، يترك المجلة التى
قرأها للمرة الثانية، يمسك "غابة" طويلة، يطارد "الخفافيش" التى
جذبها الضوء فى الشارع الخالى، يفرح عندما تصطدم الغابة "بخفاش"

غير حذر، بعض "الخنازير" المنطلقة من "زرابيها"، تجوب شوارع
المدينة، تغير اتجاهها مبتعدة، عن هذا الراقص وحده فى الليل .
أتمدد فوق كرسى "البلاج" أمام المحل، أحاول أن أفتح عينى حتى
لا أسقط فى نعاس غبشة الصباح، أضع فوطة العمل فوق كتفى أتقى
بها لسعة الفجر التى تتسلل حتى العظم .

- لماذا أتيت مبكرا؟

- نسيت أن أنبّهك

يتجه أبى ناحية "الصاج" الأخير من جهة الحارة،

يتقلب وجهه بين العبوس والابتسام،

فى نظره مزيج من اللوم والشفقة، وكثير من قلة الحيلة

- لقد ضحك عليك يا حمار

- من يا أبى؟

- الحمار

ينخبئ جسمه الكبير فى الحارة الجانبية، ينتظر حتى تهدأ الحركة
تماما، فى الوقت الذى يميل فيه الصراع لصالح سلطان، النوم ويمدد
رأسه، يأخذ الفطيرة من الصاج، يتلعهما فى هدوء، ويعود يكرر ما فعل
بحذر فطرى خبيث، أحس به أبى بالأمس ونسى أن ينبهنى .
يتعلق أبى بشيابى وأنا أنطلق خلف الحمار كالمجنون، تلتقى عيوننا،

ثم ننطلق فى ضحك "هستيرى" .. ماذا سنأكل غدا؟
فى الأيام التى يقل فيها الرزق، كنا نأكل من فطيرنا اللذيذ، كثرت
الأيام التى أكلنا فيها الفطير حتى مللنا، فى أوقات كثيرة كنا نفضل
الجوع على أكل الفطير..

- أعطنى الذهب سأشتري محلا فى "الإفرنج"

- إنه مصاريف الجامعة .. هذا كلامك

- إنه مالى .. قلت لك "هاتى" الذهب

ملقاة هذه المرأة القوية على الأرض، أول مرة يرى دموعا فى
عينيه.. أول مرة يرى أباه هكذا، تلتقى عيوننا، يطرق أبى، يخرج
متعشرا فى يأسه وندمه.

استعادت الأم توازنها سريعا، تناسى الجميع هذه اللحظات
الغريبة، لا أنسى نظرة أمى وخجلها أن أراها هكذا، لم تكن خائفة ولا
ضعيفة إنما مشفقة على مما أرى .

فى الليل يعلو صوتها الضاحك مع أبى .. لم يكن من عادتها أن
يعلو صوتها، فرغم صغر البيت، لم يشغلا أى مساحة مادية فى فراغه
القليل، كانا روحين وحده يعلم الله متى وكيف يلتقيان، ما الذى تفعله
أيها الفقير بالناس؟

ما الذى تفعله أيها الحب بالناس؟

وكما ذهب عمى فجأة عاد.. عاد مغبرا هزيلا، ذكرنا بأيام التهجير
السوداء.. كانت فرحتى فرحتان، فرحة أن أرى عمى، وفرحة أن
أرتاح من سهر الليل.

قال أبى: كنت أعرف أنه سيعود

قالت أمى: لماذا لم تمنعه من السفر

قال: لا بد أن يجرب.. لا بد أن يأخذ قراره بنفسه

يا عسكرى يا أبوبندقية يا زينة الأمة المصرية

أحب هذا النشيد.. من يوم أن صفق لى الناس، وأنا أقوله أمام
لجنة تسليم البطاطين للمهاجرين، فى الإذاعة الداخلية لمدرسة "أجا"
الابتدائية وهذا النشيد نشيدى، كلماته بسيطة وحماسية، لكننى كان
لا بد أن أمر بالتجربة.

وضع قطعة الحلوى مرة واحدة فى فمه الكبير، ثم أتبعها بالأخرى
- أين تذهب أعطنى ثمن ما أكلت

يهوى الرجل الضخم بيده على الوجه الصغير، اهتز الشارع،
البيوت تتمايل، لا يدرى كم مضى من الوقت حتى استقرت البيوت
مرة أخرى، هل هى الصفعة أم هول المفاجأة؟

ارتجت البيوت مرة أخرى، عندما اصطدم الحجر بهذا الرأس
المخيف، يهجم الحيوان على المحل، يكسر ما يعترضه، يقلب
الصواني، يدوس على النعمة الممزجة بالعرق والدم..

لن أنسى أبدا هاتين العينين الغبيتين المظلمتين

- الشارع دنيا فيها الخير وفيها الشر
- إنه شرطى يا أبى
- فى كل مهنة الصالح والطالح
- مهنة ! كيف يكون الشرطى لصا ومجرما يا أبى؟
- لم يهدأ أبى إلا بعد أن قالوا: لقد انتقل إلى بلدة بعيدة خوفا من انتقامك ..
- عرفت الآن.. التجربة وحدها هى التى تعطى الكلمات معانيها .

تحيا مصر

يفجؤنى أبى بالسؤال: كم فى جيبك يا بنى؟
يعطينى مثل ما فى جيبى... من يومها وأنا حريص ألا يخلو جيبى
من النقود...

لم يعد "كمونة" يرافقنى على دراجتنا "الراي" الكبيرة إلى
المدرسة، لم أصدق أنه يخجل من صينية البقلاوة...
أحضر إلى المدرسة مبكرا، أفتح "الكانتين"، أضع الصينية ثم أغلق
الباب، وأقف فى طابور الصباح، لم يكن خوفا من الأستاذ "رمزي"
الصارم، فأنا أحب أن أقف مشدودا، أنظر إلى العلم وأجأر بصوتى
تحيا مصر...

كل المدرسين يسمحون لى بالخروج قبل "الفسحة" بدقيقة أو
بدقيقتين إلا مدرس الحساب... ضربنى مرة على وجهي، أصفعه فى
أحلامي صفعة قوية ولها فرقة.

قال مدرس الرسم: فى كل مرة ترسم بندقية؟

- ألم تقل هذه حصبة الاختيار الحر؟ ثم إنها تختلف عن تلك التي رسمتها من قبل، هذه لها ذراع، ولا تنكسر عند الحشو

يقف بالساعات أمام محل "سرحان" لبيع الأسلحة، هذه "تل" وتلك "ديانا"، وهذه "فالك"، وهذه التحفة "بى إس إيه"، عرفه أصحاب المحل وتركوه..

- أريد بندقية يا أبى

- يفرجها الله يا بنى

جدتى شفيقة

تأتى كالفرحة وتمضى كالطيف، يسبقها صوتها المجلجل قبل
حضورها المقتحم، بقوامها الرشيق وتقاطيعها الخمرية الحادة، وهذه
الشامة الكبيرة بجوار فمها المفتوح على الدوام.

لا تكاد تستقر، كطائر على أهبة الانطلاق، تأخذنى على رجليها
وهى تحدثنى وتقبلنى، تضع فى جيبى "مليما" أو "مليمين"، من تلك
"الملاليم" المعدنية الصفراء الكبيرة، عليها ذلك الوجه السمين ذو
"الطربوش"، توزع على جيوبى ما أحضرته لى من حلوى.

بعد الغذاء، يتمدد أبى على أرضية البيت الخشبية أمام باب
السطوح، يستقبل تيار الهواء المشبع باليود ورائحة البحر، يضع رأسه
فوق فخذه، تمسحه فى حنان وهو مستسلم مثل طفل، وتظل صامته
حتى يفيق .

رأت زوج أختها على رأس الشارع، قادمة بقامته المديدة، وبدلته
العسكرية السوداء، بأزرارها النحاسية اللامعة، شهقت من الفرحة ثم
سقطت فى مكانها .

قال القادمون من "الإسماعيلية": مات فى معركة الشرطة مع
"الإنجليز"، وها هى تراه قادما، بلحمه وشحمه، وبدلته السوداء
وأذرارها الصفراء اللامعة.

قال الطبيب: قللى من الحركة وأكثرى من الراحة ولا تحزنى وأيضا
لا تفرحى فهذا خطر عليك

قالت للطبيب: حاضر يا بنى.. لن أحزن ولن أفرح
جلست بجانب رأسها، وهى ممددة، وصامتة، وملفوفة فى القماش
الأبيض الحديد..

- أنت هنا وعمك قلب الدنيا عليك ألم أقل لك لا تدخل هذه
الحجرة؟

- إنها نائمة.. أليس كذلك يا أبى؟

- قلت لك ماتت يا بنى الله يرحمها

عدنا من المقابر وأنا غير مصدق أننى لن أراها مرة أخرى .

تزورنى فى الليل ملفوفة فى القماش الأبيض، الذى تشع منه
رائحة "النفثالين"، أحزن عندما أستيقظ فى الصباح فلا أجد تلك
الحلوى فى جيوبى، ولا أجد فى قبضتى المنقبضة تلك "الملاليم"
النحاسية الكبيرة .

سيد هتلر

- حلمت حلما بالأمس يا أمي
- قل حلمت خيرا بالصلاة على النبي أولا
- حلمت خيرا بالصلاة على النبي أولا، أنى أسير مع أختى "حبيبة" فى حديقة فيها ترعة صغيرة، سقطت أختى فى الترعة، هى تغوص وأنا وراءها، تمد يدها الصغيرة أكاد أمسكها.. تنفلت منى فى ظلام الترعة العميق، وصعدت وحدى..
- مرضت أختى ليلتها، أتى الصباح وهى ميتة .
- ينظر أبى إلى، قلبه فى عينيه، يقطر حنانا وفزعا..
- فى ليالى الشتاء، ونحن نلتف حول المدفأة النادرة التى اشتراها من البحر، ونحن نأكل "الكستناء" المشوية المرصوصة على سقفها الخزفى المائل إلى الاخضرار، لم يغد يحكى لنا أبى نواذر أخيه الصغير "سيد هتلر" .. أسماء الجيران هكذا "سيد هتلر" يقول: "تولبيد" يسقط "طوربيد" ألمانى على المدينة، يعرفون أنه "ابن موت" .. وجدوه ميتا ذات صباح دون سابق إنذار .

أتصنع النوم وأبى يقبلنى فى الصباح، أمسح عن وجهى قطرات
الندى الدافئ.. لم أعد أحكى أحلامي، حتى لا أرى هذا الطائر المفزع
فى عيني أبى.

سينما "ريالتو"

- "بتعريفة" "سمنية"

تحول الكون إلى موسيقى بيضاء، كف عقله عن التفكير، يحاول أن يبعد نظره عن هذا الوجه الجميل، لماذا يخشى أن ينظر في عينيها؟ هل هي "ميدوزا" التي ستحوّله إلى حجر، أم هي "الجنية" وهو "المجذوب"؟

الشارع ممتلئ بالبنيات لماذا لا يحدث ما يحدث إلا معها ومعها فقط؟ يقول عقله: إنها لعنتك الأبدية

يحزن عندما يراها تضحك مع بعض أخواتها من هذا "الأهبل" الصغير، الذي ملأ "القرطاس" الكبير بخمسة "مليمات"، لا تدرى الحمقاء أنها لو طلبت أن يضع لها روحه في "القرطاس" لفعل...
ربما تحبها، قال عمه وهو يضحك بينما يسيران في شارع "الكورنيش" قبل ميعة السينما.

كل خميس يذهبون إلى السينما، إما سينما "ريالتو" أو سينما

"الشرق" صيفا، وإما سينما "ريو" أو سينما "ماجيستيك" فى الشتاء..
من لا يدفع ثمن السينما، يشتري فى الاستراحة سندويشات
القول والطعمية والباذنجان.

لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى.. ذهبت مرة وحدى إلى
سينما "الأهلي" فى الحفلة الصباحية، لم أستطع أن أكمل الفيلم،
وجدت يد الرجل الكبير الجالس بجانبى تتسلل، وتتحسس عضوى،
أحسست بالقرف، غادرت السينما وأنا أضع يدى فى جيبى حتى
أدارى انتصابى.. حينما حكيت "لكمال" قال: لماذا لا تحس بالقرف
وأنت تأخذ "سماسم" أمامك على ماسورة الدراجة؟

كل فصلنا يحلم "بسماسم" هذا الولد "المربوب" الأسمر وشعره
الكستنائى الناعم، ينسدل على جبهته فى أنوثة بادية، كنت الوحيد
الذى يلجأ إليه "سماسم" طلبا للحماية من هؤلاء الشياطين.

أفلام أمريكية غالبا، "جاك ليمون"، "تونى كيرتس"، "جارى
كوبر"، "كيرك دوجلاس".. أحببته فى دور "سبارتاكوس" وحزنت
بشدة حينما عرفت أنه "صهيونى".

ترتبط "أميركا" فى ذهنه دائما بالسينما و"بحسن" ابن
الجيران، وضع "حسن" رأسه فى كيس اللبن "الجاف" المرسوم عليه

العلم الأمريكى بخطوطه الكثيرة ونجومه التى بلا عدد، والمكتوب
عليه بخط كبير "معونة من الشعب الأمريكى"، تجمد اللبن الجاف
فى حلق "حسن" .. جحظت عيناه وأوشك على الموت، لم يستطع
إصبعى الصغير أن يخترق اللبن المتحجر فى حنجرتة، وضعت القلم
الرصاص بإصرار حتى وصل الهواء فى آخر لحظة.

أحببت أقلام الرصاص .. ما رأيت قلم رصاص فى مكتبة إلا
واشتريته، وما أرى كلمة معونة فى جريدة إلا وأرى عينى "حسن"
الجاحظتين وأسمع حشرجته اليائسة .. وما أسمع نشيد:

مصر مصر مصر أمنا
وفخرنا وعزنا ومجدنا
نيلها الحياة منة الإله
شعبها الأبى وجيشها فداه

الذى كنا نردده فى مدرسة السلام الابتدائية المشتركة، إلا وأرى
عينين واسعتين لطفلة صغيرة تخطف روحى.

السراى الصفراء

حتى العرب مقسم هندسيا إلى شوارع طولية وشوارع عرضية فى نظام ثابت تقريبا.. بالطول الشوارع الأساسية الواسعة: السواحل، كسرى، الحميدي، الثلاثينى.. وبالعرض: "الأمين" - وهو عمليا، الحد الفاصل بين حتى "العرب" وحتى "المناخ" - ثم، "نبيه"، "عدلي"، "بنى سويف"، "أسوان"، "المنيا"، "الجيزة"، "الدقهلية"، "أبو الحسن"، "الروضة" (سوق السمك)، حتى نصل إلى شارع "محمد علي".. يفصل بين حتى "العرب" وحتى "الإفرنج".

وبين هذه الشوارع الأساسية بالطول أو بالعرض شوارع أقل اتساعا، تفصل بينها حارات مرصوفة بمكعبات الحجر البازلتى الأسود الذى يلمع تحت ماء المطر فى الشتاء.. كنت أخبئ حجرا منها فى "صندرة" السلم، أستخدمه فى كسر ثمرة "الدوم" حتى أحصل على نواتها البنية الصلبة التى تشبه ثمرة الجوز الصغيرة..

من يقع فى دائرة شارع كبير، يصبح من أهله، وقد يسمى الشارع

باسم واحد أو أكثر من سكانه المشهورين، فشارع "بنى سويف" هو شارع "كبرة" فى نصفه الشمالى، وهو أيضا شارع "نجم" فى نصفه الجنوبى، كذلك بعض الحارات.. حارة "أبو دنيا" مثلا .

أما شارع "أسوان" الذى تتبعه حارة "البكري"، فاسمه على لسان الناس شارع "السراية الصفراء"، ولا يقولون شارع "أسوان" كما هو مدون على اللوحات الحديدية المثبتة على جانبيه، والمكتوبة بالعربية و"الإفرنجية"، ولم يتسم هذا الشارع فى يوم من الأيام باسم شخص من سكانه.. ربما لكثرة الشخصيات المشهورة فيه .

و"السراية الصفراء" مبنى ضخم، يشغل مساحة مربع سكنى، والمربع " ستة " بيوت من بيوت الحى الصغيرة المتشابهة فى الشكل وفى المساحة، ثلاثة فى الواجهة تطل على "الواسع"، وثلاثة فى ظهرها تطل على "الحارة".. حى العرب القديم كله مبنى على نظام المربعات ..

يقول الكبار كان مستشفى للمجانين، رأيت له فترة مشغولا بمدرسة ابتدائية، ولأنه لم مصمم أصلا ليكون مدرسة، جعل التلاميذ شارع "أسوان" النظيف فناء يتراصون فيه لتحية العلم كل صباح .

لعب على أرضه مشاهير الكرة فى المدينة "نجم" وأخوه "أمح" "السنجق" "العربى الشكورى" وغيرهم.

كثرت هزائمنا والسبب "فرج" هذا المارد الأسمر.. كابتن الفريق
قلت لعم "محمود" الحلاق: هذا ظلم
قال: أنت لم تره فى شبابه
يدعى "فرج" المرض ويعتذر عن المباريات الهامة، وكنا ننتصر،
كان الجميع يعرفون.. وكان الجميع راضين .
ضربت شخصا من شارع "عدلي" نظر إلى حبيبتى نظرات لم
تعجبني.. كانت تقف على باب "المنذرة" تنتظر صديقتها، جمالها
وزينتها يلفتان الأنظار
كاد أبناء "عدلي" أن يفتكوا بى لولا "فرج".. أخذنى إلى شارعهم
واعتذرت، عيب أن تضرب أحدا فى شارعك، وعيب أيضا أن تضرب
من يعتذر لك فى شارعك.
وشارعنا منافس خطير فى حرائق "شم النسيم"، ندخر الوقود
من الأخشاب والأقفاص من العام للعام.. مع اقتراب الموعد يصبح
من المؤلف رؤية "الدمى" الكبيرة المحشوة بالقش تتدلى من النوافذ،
ومن أسطح المنازل، لا تكتمل الحريقة إلا بحرق "الألمبي"، ندخر أيضا
الزجاجات الفارغة والأحجار لمقاومة الحكومة إذا قررت منعنا، ونحسبها
لأى عدوان مفاجئ، من "حارة" أو "شارع" قريب أو بعيد..
تقوم المعارك غالبا بسبب خلافات تافهة ولولا وجود الحكماء من

أمثال "فرج" لسالت كل يوم دماء، فالناس دمهم حامى وعواطفهم
متأججة.

سماء ملطخة ببقع رمادية، يتخللها ضوء باهت لشمس خريفية
غاربة، السراى الصفراء بشبابيكها الخشبية الكبيرة، والمتراصة فى
نظام ثابت والمغلقة دائماً.. "البلكونة" الخشبية الممتدة بطول المبنى
والمستقرة على أعمدة خشبية غليظة، تحد الرصيف الطويل الذى كنا
نلعب عليه الكرة ونحن صغار.. سطح المبنى الذى يبدو متهاكاً قياساً
إلى سائر المبنى القديم القوى بحجارته الصفراء الضخمة.

إحساس يشبه اليقين أن فى هذا القصر الموحش حياة، يقسم "أبو
عوض" البقال أنه سمع فى مرات كثيرة أننا معذباً خلف الشبابيك
المغلقة، وأحياناً يسمع ضحكات مرعبة كضحكات الشياطين..
السراى "مسكونة".

تهبط كتل الظلمة خائفة وثقيلة، هبة هواء باردة ينكسر أمامها
القميص الصيفى الخفيف بأكمامه القصيرة، تنكمش المسام عند منابت
الشعر، ويقشعر البدن.. إنها سراى صفراء أخرى فى الليل أرانى
أجوس فيها.. أفتح نوافذها نافذة نافذة، أفتح أبوابها المائة باباً باباً،
إنها التجسيم الحى لعالم "ألف ليلة وليلة" الذى أخطو فيه بنهم الصبا
العفى، وشبقه الفائر، وخیاله الممتد بلا حدود.

كليوباترا

يستند برج الحمام على حائط الجيران ..
قبل أن يتعملق هكذا ويحجب عنا نصف المدينة من جهة الجنوب ،
كان بيت "طه الصغير" قديما قصيرا تمتلئ "سطوحه" بكل أنواع الطيور
الداجنة .. "أشب" على السور الجنوبي أقلد صوت الديك الرومي ،
يشتعل السطوح بأصوات كل الديوك الرومية الغاضبة ..
على سطوح بيتنا ، "أصص" الورد البلدى بألوانه الفاقعة ، والفلفل
الأحمر والأزرق والأخضر بقرونه الخزفية الصغيرة .. نسمة ربيعية
دافئة تهز حبل الغسيل على سطوح الجيران ، لماذا هي بهذا الجمال ،
تلك الملابس النسائية بألوانها الصيفية التي تختصرها عيني ، في
هذا اللون الأرجواني الدافئ ، أنتشى وأنا أرى الحمالة النسائية ، في
رقصتها الوحشية فوق جمرات الخيال ، ما هذه الفوضى الجسدية التي
تعتريني؟ .. يزورنى حبل الغسيل فى الليل كائنات أنثوية ، لها رحيق
الورد ، وبهجة العسل ، ونضارة الفردوس .

يحرص أبى كل صباح أن يرانى أشرب كوب اللبن، بعد أن يضع فيه بيضتين نيئتين طازجتين .

تهتز الكنبه القديمة .. المحشورة بين الحائط والسرير ذى الأعمدة الحديدية المرتفعة، تعبث أصابعه فى "الكريتون" الذى حال لونه من كثرة الغسيل، وهى جالسة على كرسى خشبى أمامه، تفصل بينهما "ترابيزة" صغيرة، مفتوح فوقها كتاب الإنجليزى "قصة كليوباترة"، على طرف السرير، تتكى زميلتها بجسدها الفائر، المتفجر من قميص النوم الصيفي، تنظر فى عينيه اللتين لا تريان أى شىء

تقول الزميلة: مسكين "هارمكيز" هذا العابد "لكليوباترة"، هذا المطرود من جنتها

تقول "كليوباترة": هو الذى يفعل بنفسه ما يفعل
- دعينى أقرأ هذا المقطع .. ما أقسى قلبك يا "كليوباترة" !
يضع الكتاب .. ينظر فى عينيها: أنا أحبك
أخيرا قالها .. خرجت الألفاظ واضحة مرتبة على حين غفلة منه
صوت "عبد الحليم حافظ" يصرخ وحده فى فضاء الكون:
"قول بحبك .. قول كرهتك .. بس قول لى أى حاجة يا حبيبي"
- أنا لا أكرهك

ياللعذاب .. إنها لم تقل أى حاجة يا "عبد الحليم حافظ"

الأستاذ محرز

لا أنسى أبدا وجه رأيته، وأحب الهندسة وأكره الحساب، فعقلي
لا يحتفظ بالأرقام، أعشق التاريخ فى الوقت الذى أنسى فيه أسماء
الناس، أجلس مع الشخص ساعة نتحدث أخاف أن أناديه باسمه فلا
أجد ذاكرة تطاوعنى، وأحب الشعر أحفظ القصيدة من القراءة الأولى.
تشتبك الكلمات فى فم الأستاذ "محرز" مدرس اللغة العربية وهو
يشرح قول "ناجي":

وأنا منك فراش ذائب فى
لجين من رقيق الضوء ذابا
فرح بالنور وبالنار معا
طار للقمة محموما وآبا
آب من رحلته محترقا
وهولا يألوك حبا وعتابا

يحاول التصوير بيديه، يضع يده فى شعر "عبده معروف" الجالس
فى المقعد الأمامي، يروح ويجيء فى الفصل كأسد جبيس، تجحظ

عيناه وتنتفخ أوداجه كمن يوشك على الاختناق، ينظر إلى : قل يا ولد، وأقول وأنفاسي تتهدج، فتح الله عليك يا ولد.. وبين قل يا ولد، وفتح الله عليك يا ولد، تنتهى حصة النصوص ولم يشرح الأستاذ "محرز" بيتا واحدا .

فى حصة التعبير يقول "لكمال" المنهمك معى فى لعب "الضامة":
أبشر فأنا أرى قفاك فى نفس المكان العام القادم
يقول "كمال": وهل ترى البشروش أيضا
- هو ذكى وسينجح.. الدور عليك أنت يا "حمار"
نذاكر معا.. فى بيتى أو فى بيت "كمال" القريب من بيتنا، أو
فى بيت "حنا" أمام الكنيسة الإيطالية، أحتاج الحساب و"حنا" يحتاج
"الإنجليزى"، و"كمال" يحتاج المواد الدراسية كلها
"كمال" "بهائي" يكتب فى بطاقته الشخصية مسلم.

أولاد الأبالسة

تكثر أمى من "البسملة" طوال الطبخ، وأثناء غرف الطعام، حتى تحل فيه البركة.. لا مشاكل لى مع طعام "المسيحيين" فهم "إخواننا فى الوطن والدين".. كما يؤكد الأستاذ "محرز"، والدين لله، والدين عند الله الإسلام، والمؤمن من أمن بالله وكتبه ورسله، والله وحده يحكم بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون.. حتى الآن الكلام جميل، أما "كمال"، فنخرج الموضوع، ولوترك الأمر للأستاذ "محرز" لطرده من المدرسة، بل من الدنيا كلها، فوجوده مع أهل الدين حرام، ومصادقته حرام، ومؤاكلته حرام.. أكلت فى بيت "كمال" أرز وفول حرادى مدفونة وشبعت..

قالت أمى عندما أخبرتها: هل "سميت" قبل الأكل؟
قلت لها: "سميت".. خجلت أن أقول لها: لا أتذكر
قالت: المهم النية.. طالما نيتك سليمة ستحل البركة
الله عليك يا ماما "نعيمة"

أبو "كمال" عجلا تى .. أركب أنا "الموتوسيكل الماتشليز" رقم 45
ويركب "كمال" "الموتوسيكل" الآخر رقم 40 ونتسابق ليلا فى طريق
"الكورنيش" ..

يعيد "كمال" مفاتيح المحل قبل أن يستيقظ أبوه، لما سأل لماذا يجد
"الموتوسيكلين" دافئين فى الصباح

قال "كمال": ربما يركبهما العفاريت فى الليل .

فى إحدى المرات اختبأ أبوه فى "صندرة" المحل .. هجم علينا
فأطلقنا ساقينا للريح .

يقول: عفاريت يا أولاد "الأبالسة"

يحب "كمال" فتاة مسلمة قال: سأسلم وأتزوجها

لم يسلم "كمال"، ولم يتزوجها .. حتى لو أسلم ما كان لبيت
فى بورسعيد أن يزوج ابنته لواحد من "المرتدين" كما يقول الأستاذ
"محرز" ..

عاش "كمال" بجرح فى قلبه لم يندمل، نفس الجرح الذى لم
يندمل فى قلبي، ولأسباب مختلفة

وات قايم

بعد أن أفلس أبي، عمل فى مصنع "بروك بوند" لتعبئة الشاي الذى
"أمه جمال عبد الناصر"، تسلم دراجة جديدة ماركة "نصر" .. نفس
الدراجة التى تنتجها المصانع "الهندية"، أخذتها واحتفظ هو بدراجته
"الراي" السوداء الكبيرة.

- لا أحب اللون الأخضر

- أعرف يا بنى .. كل الدفعة خضراء

قلبت "الجدون" حتى تصبح شبيهة بدراجات السباق .. أتسابق
مع "كمال"، هو بدراجته "الأربعة والعشرين" السوداء، وأنا بدراجتى
"الإسبور" الخضراء الجديدة .. أجده قبلى دائما أمام مدرسة "الأقباط
" الثانوية فى شارع "محمد علي"، لم أتخيل أنه يكذب إلا بعد أن
شاهدته بعينى رأسى يخرج إلى شارع "الثلاثيني" الواسع، شرط
السباق شارع "التجاري" المزدهم بالناس وعربات اليد المحملة
بالبضائع.

بعد أن نجحت فى الإعدادية اشترى لى أبى بندقية صيد "تشيكى"
ماركة "سلافا" .. صنعتها المصانع الحربية بعد ذلك وأسمتها
"رمسيس"، اشتراها ضمن "استمارة التقسيط" من محلات "عمر
أفندي" التى أممها "جمال عبد الناصر" ..

لم أقل له: إن حلمى بندقية "تل" من محل "سرحان" فى شارع
"التجاري"

مع الوقت أحببت بندقيتى واعتززت بها .

نذهب للصيد أنا و"كمال" و"نبيل الطيب" المجنون بالصيد ..
يجمع فى بيته الحلقات المعدنية التى يجدها حول أقدام الطيور: "الواق"
"السويد" "السوفري" "البط" "الخضير" .. عشرات الأنواع التى تحضر
فى الموسم، نصطادها إما من عند كوبرى "الجميل" المكسور منذ
العدوان الثلاثي، وإما من المزرعة الغربية فى طريق "الجميل"، أو من
المزرعة الشرقية بين "الترعة الحلوة" و"قناة السويس" .. نذهب إليها
صباح "شم النسيم" بعد حرق "الألبى"، نأكل فيها "الخرشوف"
"البنجر الأحمر" "الجدرة" و"التين الشوكي"، وإما من "الجبانات" ..
لدينا أفخم جبانات فى مصر، جبانة "الحلفاء"، نجيل أخضر فاقع
اللون، يمتد مثل سجادة سميكة، تغوص فى طراوته الأقدام، فوقه
الشواهد الرخامية، المنقوش عليها بالأحرف الإنجليزية الكبيرة أسماء

الجنود الميتين فى الحرب العالمية، مرصوصة فى نظام، وكأنها طابور
عسكرى ينقصه الأرجل والأذرع والرؤوس.

يقول أبى وهو يبتسم: معظمهم من "الأفارقة" و"الهنود"... يقفون
خلف أسوار معسكراتهم الشائكة، المظلة على طريق "الجبانة"،
ينتظرون الجنازة، يقول الناس: ياداي يادايم والدايم هو الله،

وهم يرددون: "وات تايم وات تايم وات تايم سكس كلوك".

"جبانة" الأجانب مبنية على النظام الأوروبى.. أمام الباب
الخشبى المنحوت المزخرف تنتصب التماثيل الرخامية الرائعة، بالحجم
الطبيعى وعلى الشواهد والأبواب صور الميتين، فى أطباقها الخزفية
الملونة، وقناديل الشموع الفاخرة.

مقابر المسيحيين المصريين ليس فيها بذخ مقابر الخواجات، هى
أقرب إلى مقابر المسلمين، مظاهر البذخ والأبهة فى الجنازة، العربية
الفاخرة التى تجرها الأحصنة المطهمة، والتابوت الخشبى المزخرف،
تسدل حوله ستائر العربية السوداء، وهؤلاء المشيعون بملابسهم
الزسمية.. مشهد آخر أبهه.

مستطيل صغير من الأرض، محشور بين موتى المسيحيين وموتى
المسلمين، حوله سور متداع من الطوب الأحمر، فيه أعلى "سنديانة"
فى الجبانة، وفيه أيضا قبور هدمتها الطبيعة والوحشة، على شواهدا

نجمة سداسية، وكتابة بالعبرية، تكاد لاتبين وسط أحراش من الشوك،
والنباتات الوحشية المرتجلة، التى تعمل كهوفا من الظلمة، تشبه تلك
الأماكن المهجورة التى يسكنها "فرانكشتين" فى أفلامه المرعبة، تأوى
الثعابين، والحشرات السامة، كنت أنزل إليها بحثا عن طيورنا التى
تسقط فيها .

"الأحواش" الكبيرة، فى أول مقابر المسلمين، ثم يقل حجم
المقبرة كلما اتجهت غربا، الناس درجات حتى وهم تحت الأرض.. لا
بد أن يزور الناس مقابر الشهداء، ففى كل بيت فى بورسعيد شهيد .

لا يدفن "البهائيون" فى الجبانة، يدفنون على طريق دمياط فى
الرمل المالح، سألت قالوا: يرفض أهل الدين قبول الكفار، الأرض
نفسها تطردهم، الرمل المالح على الطريق يلفظ الجثث.. الناس هم
الناس حتى فى مملكة الموت .

السيد حنجل

- لن أعطيك كرة أخرى يا بشروش

- لقد أحرزت هدفا

- هدفا ميتا لا طعم له، أعطيك الكرة تردها لي، هل تفهم يا أنانى؟

قصير هذا "السيد حنجل" وعنيف، يهرب أى حارس مرمى من تسديده القوية، يقفز فى الهواء، ثم تنطلق الكرة كالقنبلة من قدمه المقوسة، يضحك "محمدون"، أثقل وزن فى المدرسة، وربما فى المدينة كلها، ولكنه بالتأكيد أخف دم فى الدنيا

- سألعب معكم.. أنا فى فريق "البشروش"

لا يعترف "محمدون" بوزنه الثقيل، يرى نفسه رشيقا، والعجيب أننا نصدق.. أهاجم عليه محاولا إبعاده بالقوة، يضع رأسى تحت إبطه الثقيل، أكاد أختنق فى اللحم والعرق.. يقول لى ضاحكا: لا تقترب من "التخين" يا "بشروش" يقتلك.. اضربه وأنت بعيد.

الوحيد الذى "يزوغ" من باب المدرسة جهارا نهارا ولا يعترضه أحد
- قابلنى يا "بشروش" عند "السيوفى"

يتجه "البشروش" نحو سور المدرسة الخلفى
يقول الزملاء: لا تتأخر يا "بشروش" عن حصة النصوص
يضع "السيوفى" كومة "السندويثات" أمام "محمدون"
- كل يا "بشروش" لقد أكلت طعامك فى المدرسة
- الحمد لله

فى كل مرة يكشر "محمدون" من العزومة الصادقة، وفى كل مرة
أيضا لا يأكل "البشروش".

سور مدرسة البنات الثانوية، يرفع رأسه لشباك مفتوح لا يقف
فيه أحد، إنها جالسة بجوار هذا الشباك، يهبط الصمت الثقيل، يمسح
خرزة توشك على الانفلات..

لماذا يخرج من تلك الدموع النافرة.. "العقاد" نفسه بكى من لوعة
الحب، يرد على نفسه: "العقاد" أخذ قراره ثم بكى، لماذا لا تأخذ قرارا
أيها الرجل؟

يتمتم بكلمات "كامل الشناوى":

أحببتها وظننت أن بقلبها
نبضا كقلبي لا تقيد الضلوع
أحببتها فإذا بها قلب بلا نبض
سراب خادع ظمأ وجوع
فتركتها لكن قلبي لم يزل طفلا
يعاوده الحنين إلى الرجوع
فإذا مررت وكم مررت ببيتها
تبكي الخطى منى وترتعد الدموع
سامحكم الله أيها "الرومانسيون" لقد أضعتم حياتي
يجار بصوته في الشارع الصامت الخالي: سراب خادع ظمأ
وجوع.. سراب خادع ظمأ وجوع.

- أسرع يا "بشروش" أوشكت حصّة النصوص على الانتهاء...
- حفر وهرش.. حفر وهرش
- تحرك يا أخي وأنت تتكلم، هذا تمثيل وليس حصّة نصوص
- هذا الدور لا يلائمني، ثم إن المسرحية كلها سخيّة
- "ثورة الموتى" لا تعجبك؟
- الموتى لا يعرفون الثورة لا يثور إلا الأحياء يا أستاذ "شوقي"
- كفاك فلسفة وقل هذا للكاتب "الأمريكي إروين شو"
- "أمريكا" أيضا نريد أن نتنفس يا رجل

المخرج "شوقى نعمان" الأخ الكبير لزميلى وصديقى "محيى الدين"، "شوقى نعمان ومحمود يس وسيد طليب وغيرهم، جيل مثقف جديد حمل راية المسرح البورسعيدى بعد جيل الرواد العظماء من أمثال "نصر الدين الغريب"

- لماذا يعاملنى أخوك هكذا يا "محيى"؟

ثم ما هذه الاختيارات الغريبة، العام الماضى "أهل الكهف" والآن "ثورة الموتى"

يضحك "محيى" ويقول: لولا أنه يعمل حسابا لخاطرى لطردك من فريق التمثيل فأنت فى نظره غير موهوب ولا تسمع الكلام ولا أمل فىك .

معسكر الجلاء

- اذهب معه إنها القاهرة
- ابنك رجل يعرف كيف يتصرف
- قبله أبوه قبل أن يتحرك القطار، أخرج ما فى جيبه من الفكة
ووضعها فى يده: اشتر لنفسك مشروباً يا بنى
بدا متماسكاً وواثقاً.
- وجوه متفرقة فى فضاء العربية الفسيح، بعض العوارض الخشبية
منزوعة من الكراسي، أكثر من نافذة زجاجها محطم، الحصار
الاقتصادي، ماذا يريد منا هؤلاء الناس ؟
- يزداد الارتجاج كلما زادت سرعة القطار..
- استند إلى حقيبته المتوسطة الحجم.. القديمة، يتحسس بصدرة
موضع النقود، عشرة جنيهات ورقة واحدة، خاطتها أمه فى قميصه،
فوق القلب تماماً .
- حاسب من النشالين فى مصر إنهم يسرقون "الكحل" من العين

. - لا تتحسس النقود بيدك فيعرفوا مكانها

عاصفة من الغبار الأصفر الخانق، دهمتنا من الشبابيك المحطمة،
دقائق وانفتح الباب الفاصل بين عربات القطار، وانشغلت المقاعد كلها،
قال الجالس أمامه: افتح النافذة، لقد عبرنا المنطقة الرملية اللعينة، إنها
الخبرة واعتياد السفر.. السفر هذا الوحش الذى ينهش القلب.. لقد
سافر وهو فى بطن أمه إلى "السيد البدوي" ..

وقفت أمام المقام وقالت: لو جاء ولدا سيكون "السيد" ويزورك
ويبوس قدمك

يتذكر الجامع الكبير، والشحاذين، وال دراويش يقدمون أيديهم
للفلاحين يقبلونها، بعد أن يضعوا فى حجورهم العطايا، رأى موضع
القدم الكبير خلف الزجاج

قال زوج عمته: كان طويلا مثل العون يذبح المائة من الكفار بضربة
واحدة من سيفه الكبير

ثم يبتلع ريقه ويقول: رأيت به عيني رأسى اللتين سيأكلهما الدود
يخرج من المقام ويمسك "الطوربيد" الألمانى فى الهواء ثم يضعه برفق
بعيدا عن الجامع وبعيدا عن العمران..

يتذكر ألم أمه وأنينها من الصداع بعد ميلاد أخته الصغرى..
قالت عجوز من الجيران: اذهبي إلى "السيد البدوي" .. العجيب

أنها تركت الصداق عند المقام وعادت محملة بأكياس "الحمصية"
و"السسمية" و"حب العزيز" ..

فى الليل، كنت أتعمد كسر الحصان الذى تحضره لى جدتى فى
"مولد النبى" حتى أكله فى الصباح

- لماذا لا يبيعون "حب العزيز" فى "مولد النبى" يا أبى؟

- حب العزيز فى مولد "السيد البدوي"

- هل يستطيع "النبى" أن يشفى من الصداق؟

- اسكت يا ولد هذا حرام الشافى هو الله

- هل يسكن الله عند "السيد البدوي"؟

- اسكت يا ولد لا تتكلم هكذا هذا حرام حرام

يفيق على صوت بائع "الكازوزة"، تزداد قبضته انقباضا على نقود
أبيه كلما زاد رنين الفتاحة على الزجاجات المغرية، إحساس يشبه
الرغبة فى هرش الجلد هذه الرغبة فى أن يضع يده على موضع النقود،
يعلل نفسه بالنظر من النافذة ..

قال الذى بجواره: نحن الآن فى معسكرات الجلاء .. كانت
للإنجليز قبل أن يطردهم "جمال عبد الناصر"

يتذكر "الجولف" والدراجة الرالى السوداء الكبيرة، وفتيات
يانعات يلوحن له .. يرى وجهها كبيرا بحجم نافذة القطار لفتاة جميلة
يحبها ينفلت من بين أعمدة التليفونات الهاربة ..

يخرج من نهر البشر المتزاحمين، ينفض الغبار عن وجهه وملابسه،
يخبط قدميه في الأرض على حافة الرصيف ناظرا إلى حذائه الجديد،
ينزلق بصره إلى الشريط الحديدي اللامع وسط بقع الزيت السوداء،
يتتبع الشريط بعينه راجعا في اتجاه المدينة، يدخل في تلك الشبكة
اللعينة من التحويلات، يرفع وجهه مخترقا هذا الهواء الساخن
المملح..

مكتسية العوارض الحديدية في هذا السقف العالي، بالغبار
الرمادي الكثيف، صخب شديد، أصوات الباعة والمسافرين، مكبرات
الصوت التي لا يفهم أحد كلامها..

سوق كبير هذه المحطة الحديدية الغبراء.

على باب الخروج من محطة مصر، يزفر زفرة شديدة، قبل أن ينزل
هذه الدرجات القليلة، منزلقا في فم هذا الوحش الخرافي.. القاهرة.

الجزء الثاني: الفرائس

جدلية الحياة والموت

تتكور المدينة، مثل صدفة عجيبة ينالها الماء من جميع أقطارها،
ولكل ماء طبيعته وشخصيته ومذاقه ولونه..

فى الشمال يهيج البحر فيطوؤها فى توحش موجة بعد موجة مرغيا
ومزبدا ودافقا وله شهيق وزفير وخوار..

فإذا همدَ وفتّر انحسر، مخلفا وراءه بركاً فضية تختلج فيها
مخلوقات بحرية مختنقة، تتراقص رقصة الموت فوق سطح الماء
الغائض، فتلقفها مناقير مشرعة لنوارس محومة، وأشعة أرجوانية
تعكسها الأرض المبللة، وظل طويل لساقى نورس عجوز، وقف
منكمشاً على صدر قارب مهجور، والقرص الأحمر الملتهب، يفرق
حشياً فى الأزرق الهامد..

جدلية الحياة والموت، وحضور العناصر، الماء، النار والهواء..
فى الشرق، المياه قائمة عميقة وغادرة وأقل رعونة وطيشاً، تمخرها
بين الفينة والفينة سفينة عملاقة، تدفع الماء على صدرها، مخلفة

وراءها، خطين واهنين، واحدٌ يتجهُ ليضربَ حجرَ "ديليسبس" العتيد، ويتلاشى الآخر وقبل أن يصل إلى الضفة الأخرى البعيدة فى "بورفؤاد"، وقاب قوسين أو أدنى، "دلافين" تقهقه غافلةً، وسط الموت الحديدي الهادر، يخبطها "رفاصُ" السفينة العملاقة، فتموت بلا صوتٍ، أو يجرحُها، فتظلُّ تولولُ إلى أن تموت..

من الغربِ والجنوبِ، تتقوسُ المدينة فى رِجَمِ البحيرةِ الرؤوم، والقنالُ الداخلى، حبلٌ سُرى، يمتدُّ إلى خاصرتها، بماء، ليس كالماء.. مزيجٌ من ماء القناة القائمِ الغادرِ ومن ماء البحيرةِ الأبيضِ الطاهرِ الرقراق، ومن زيوتِ "اللنشات" القديمة، التى تربضُ على الجانبين.. مدينةٌ "طفلة"، تشبهنى وأشبهُها، تتمددُ فى جوانحي، و أسيحُ فى أبهائها، أفتحُ أبوابها المائة دفعةً واحدةً، فتبوحُ لى بأسرارها سرّاً وراء سر، أحوم على أطرافها، كائناً بحرياً، تكتمل به فيها دائرة الموت والحياة..

طيورٌ من كافة الأشكال والألوان والأحجام لا تخطئ مواسمها، وأسماكٌ شهيةٌ حيةٌ قريبةٌ التناولِ والمثول، وهواءٌ مصفى لا يشبهه أى هواء..

مدينةٌ عجيبةٌ ليس منها من لم تستبحه دماً وعظاماً وروحاً ولحماً، و

ليس منها من لم يأخذها من أقطارها جميعا ويتحد بها..
مكان عبقرى يمتزج فيه التاريخُ بالجغرافيا، بالناس، بالحربِ،
بالحب، وبالحياة، وبالموت .

المغربي

خاضت المدينة كل الحروب، الإنجليز، الفرنسيين، الألمان..
واليهود، لم يبق بيت إلا وفيه شظية هنا أو هناك إلا "المغربي"، هذا
المقام في أقصى غرب المدينة، بعد "الجميل"، وقبته الخضراء.. هذا
الغريب الغريق الذي تنسج حوله الأساطير، هذا القادم من جوف
الماء..

دفنه الصيادون في الأرض الجافة، بعيدا عن الماء، في اليوم التالي
وجدوه على هيئته الأولى، مبللا بين الماء واليابسة، دفنوه في مكانه،
وأقاموا عليه المقام..

لم يفرق أحد في حمى "المغربي" هذا الحارس المجهول..
رسوت في القاع، أغمضت عيني، توقفت تماما عن التنفس، بدأ
الضوء ينسحب رويدا رويدا، لم أشعر بأى ألم، فقط الصمت، والظلام
الذي يزداد كثافة كلما أوغلت في النفق الأسود، لم أكن خائفا، إنها
السكينة الشاملة..

حينما أخرجنى عمى من الماء، وضعنى فى حجر جدتى، كنت
أرتجف من البرد... بحثوا عنى فى الخلاء وعلى أطراف البحيرة وعند
الكوبرى المكسور، لم يبحثوا عنى فى البحر...

قال عمى: وجدته يتخبط بين أقدامى

قلت: سمعت صوت أبى فصحوت، أخذنى من يدى ورأيت
الشمس تنزل إلى الماء

قالت جدتى: بركاتك يا مغربى

لفتنى أمى فى "البشكير" الكبير، ضمتنى إلى صدرها وهى تبكى
وأنا أرتجف من البرد...

قالت: لا تخبر أحدا

تشعل الشمع بنفسها، توزعه فى أركان الضريح، وعلى رأس المقام
المكسور بالقماش الأخضر الزاهى، والمكتوب عليه آيات من القرآن
الكريم... لا تنسى أن تفعل ذلك فى كل مرة...

عندما تصبح الشمس فى المنتصف تقريبا، بين كبد السماء وخط
الماء الغربى، يأتى الرجال، يأكلون، ويلعبون "الضامة" على الرمل
الأبيض الناعم، تكون ملابس النساء قد جفت، لم تعد ملتصقة
بأبدانهن المثلثة، لا يبقى من أثر البحر سوى بياض الملح فوق

وجوههن الملتهبة، و على أذرعهن البضة الساخنة، مثل رغيف "فينو"
خرجتوا من الفرن..

لا مشاكل لي مع الماء، أقف بجوار "كمونة" في الخلاء، أنظر إلى
خط الماء الدافق، نتنافس أنا أكبر "طرفا" وأغزر ماء، وأقوى دفقا، وأعمق
حفرا في الرمال.. ليت الأمر كان محصورا على الماء، أعود من
المغربى دائما ببطن تمزق.. لم أفعلها أبدا في الخلاء، ولا مرة واحدة
في حياتي..

قال "كمونة": أتخفف من حملي في ماء البحر
أجري وراءه وهو يضحك ويروغ، أقذفه بالرمال والأصداف وأنا
أصيح:

- هذا القدر يلوث الماء الطاهر

تضحك النساء، يعجب من غضبي و شدة انفعالي، تنظر أمي إلى
فاهمة ومتعاطفة..

يقول خالي: كنا إذا انطبقت السماء على الأرض، وهاج البحر،
وارتفع الموج، وحجبت المدينة، نأوى إليه حتى تنقضى النوبة.

الثوة

فى حصة الرسم أخرج "نبيل الطيب" الحلقة المعدنية، ذات الأرقام
والحروف الإنجليزية، وضعها فوق راحته فى زهو وقال:
- عندما تأتى إلى بيتنا، سترى الرأس، رأس جميل قمتُ بتحنيطه
كل صيادى الطيور "حتى البارعين منهم" يحلمون بهذه الحلقة
المعدنية النادرة..

كى تصطاد طائر "الواق" لا بد أن يكون لديك صبر "أيوب" ودهاء
ثعلب، لا يكفى براعة التنشين.. يحلقُ عالياً فى السماء، جماعات
مهاجرة، الدليل فى المقدمة، ينفرعُ وراءه الخطان الخافقان..
فى تواضع مصطنع يقول "نبيل الطيب": إنها مسألة لحظ
هذا الماكر يعلم أنه لا دخل للحظ فى الأمر..

وضعت خطتي، خرجتُ "للجميل" فجراً، قبل أول ضوء كنت
مختبئاً بين أنقاض الكوبرى المكسور، خوضتُ فى الماء الضحل لمسافة
طويلة، موّهتُ موقعى جيداً، بقيت تحت الريح حتى لا يشمنى الطائرُ

فيجفل، قبعث ساكنا، عيني في السماء جهة البحر أنتظر طائري
المستحيل..

أفقتُ، وطيورُ الحلم أمامي، فوق الأحجار البارزة في الماء الضحل،
وعلى قوائم الكوبرى المهدمة، من أيام "الستة والخمسين"، في شموخ
تقطعُ خط السماء.. شلتني المفاجأة لثوان، استعدتُ رباطة جأشني
واخترتُ طائري، بسرعة أجريتُ حساباتي، إنه الأقربُ و الأنسبُ،
الصدرُ في مواجهتي أخذته علامة، ثم ارتفعتُ تدريجيا إلى الرأس،
طيرٌ قوى إصابة الرأس فقط هي التي تسقطه في مكانه..

القرصُ الأحمرُ الملهبُ، يكادُ يختفي في الأزرق الذي صار معتما
و داكنا ..

كتمتُ أنفاسي، وشددتُ عزمي، وأطلقتُ..
جَفلتِ الطيور مولولة في الفضاء، تنثرُ الماء كأنه المطر..
خَفتُ هديرُها تدريجيا، قبل أن تنتظمَ خلفَ قائديها في اتجاه
الجنوب..

بينى و بين طائري هذه المسافة الوعرة الموحشة، لا بد أن أصل
قبل أى وحش بريٍ آخر، في المنطقة ذئابٌ و ثعابين، في النهار الأمرُ
مختلفٌ، ولكنه الليل، والظلام الزاحف..

خَوَضْتُ في الماء الذي ارتفع فجأة، أقوم وأقع بين الصخور التي

غمرتها المياه، عيني على طائري، قلبي يخفق بشدة، يقفز أمامي،
شوقاً إلى احتضانه..

أقبضُ حلمي، جسداً كبيراً ساخناً ومختلجاً، أخرجتُ مديتي
الكبيرة الحادة أرحته وانتبهت.. كتل الماء الأسود تتجمع مدممة،
اقتربتُ السحبُ من رأسي، أكادُ أمسكها بيدي، سحب سوداء كثيفة
تدلق الماء كفوهات القرب، البحر على مرمى بصرى حوائط عالية
تهوى متفجرة على الصخور، شظايا الماء تشخب كالعويل، تسحبني
للهوة الفاغرة.. الزبدُ يفور والهواء الصامتُ يحتشدُ، إنها العاصفة
"النوة الكبرى"، والليلُ الأسودُ و طائري الخرافي، ولا شيء غير الماءِ
المطبق من كل اتجاه، و القبة الخضراء تلوح ثم تختفي، مثل فئارة
واجفة، و الصوت الذي يشبه صوت أبي..

الماء الأسود يرغى و يرتفع، سحبني مثل جذع شجرة مجتث..
لفتني الموجة العملاقة في جوفها المعتم.. احتضنت طائري وعلمت
أنها النهاية..

رفعتني الموجة العملاقة إلى قمتها ثم هوت بي متدحرجاً أمام
عتبة "المقام"، زحفت نحو الباب الخشبي الأبيض، فتحتته وارتميت،
عبرتُ حاجز الزمان والمكان.. العبق الطاهر، والسكينة الكاملة، ضوء
الشموع الأمن والدفء الحنون..

فى الصبأؑ كان البأرُ طفلا وادعا يتمسأُ فى عتبة الباب الواهن؁
والرملُ الأببضُ المبتلُ؁ تلمعُ فىه هذه الكائناتُ البأرىةُ المأألأة؁
والنوارسُ أأومُ فى أسراب زاعقة؁ وأأبوطُ الذهببةُ تنزلقُ على الماء
الذى عاد أزرق وديعا

صيد البحر

كان من الممكن أن أكون صيادا للسماك من هؤلاء الذين يجرون
حبال الغزل بين البحر ورمل الشاطئ، لا يمكن أن أكون، من هؤلاء
المعلمين بكروشهم المنتفحة، وأصابهم المليئة بالخواتم الذهبية ورزم
النقود، يحملونها في أيديهم مثل ربطة "الحبس" المنفوش، ينتظرون
الغزل لحظة خروجه من الماء، وخلفهم عربات خشبية تجرها الحمير
تقف غير بعيد تنتظر الإشارة..

يزايدون على السمك، يعصرون الصياد الكبير، صاحب المركب
والغزل بين أنيابهم المفترسة، يسرقون عرق الناس ..
تنتهى الصفقة دائما وعيونهم الجشعة يتقاذف فيها الفرخ القاسي،
وعيون العجوز دائما حزينة منكسرة، لا.. لا يمكن أن أكون واحدا من
هؤلاء اللصوص..

يفرخ الصياد لحظة إفراغ الغزل من حمولته المترجرجة، يصلى
على النبي، يعطى من حضر لحظة الفيض الإلهي، خاصة الأطفال،

يعرف أن ملكيته ستنتهي حالاً، فيمارسُ حقه الاستثنائي، تحت عيون
التجار المتلمظة..

إذا بدأتِ المزايدة لا تقتربُ يده من كومة السمك .

جوبيا

البحيرة عالمٌ مختلفٌ ومعقدٌ، أماكنٌ محددة، "جزرٌ" و"مراحاتٌ"
و"غابٌ" و"حَوْشٌ"، أصحابها لا يعرفون البر ولا يخضعون لقانونه..
للبحيرة قانونها الخاص.. الموتُ هو الحارسُ الوحيدُ لهذه
المساحات الواسعة وتلك الحدود التي لا يراها إلا أصحابها.. سكان
المراحات أقربُ إلى البدائية، فهم في وسط البحيرة منعزلون عن
الأرض، جزءٌ من الطبيعة القاهرة..

وأنا الذي لا أتعرفُ بحدود، لي كلُّ الأرض، ولي كلُّ الماء، وللناس
مثلُ ما لي.. حينما تصطدمُ قدمي "بالجوبيا" أبتعد عن مواضعها، لم
أفكرُ ولا مرةً واحدةً أن أفرغها في سبت الصيد، لم يمنعني قانونهم
الصارمُ الذي ظل مجهولاً لي دهرًا، يمنعني قانونُ أبي المحفور في
أعماقي: خذ حقك ولا تعتد..

هؤلاء البشر العراة، نادرا ما يصادفهم "بفلايكهم" الصغيرة،
يدخلون بين الغاب، يجمعون الأسماك و"يعسون" "الجوابي"، ألفوا

رؤيته فى عرينهم المحرم، ينظرون إليه كما ينظرون إلى حيوان برى،
لم أكن أعلم أننى تحت مراقبتهم الدقيقة حتى اطمأنوا.. مع الوقت
لم يعودوا يثيرون انتباهى وهم يخبون فى الماء، بسيقانهم السمراء
القوية، تتدلى بينها خراطيمهم التى تتخبط بين أفخاذهم، لم يتكلموا
معى أبدا، يرون بجوارى كما يرون بصخرة ناتئة فى الماء، يتحدثون
عبر فلايكهم الممتدة على مرمى البصر، مجالهم براح، لغتهم خبطات
وصيحات وإشارات، عرفت فيما بعد، أن معهم نساءهم وبناتهم.. لم
تقع عينى على واحدة منهن أبدا، لم أكن أعلم أن هذه الرؤية التى لم
أسع لها، عقابها الموت، الموت.. القانون الذى يحكم المكان..

وكما يظهرون فجأة من بين الغاب يختفون، يظهرون فقط وقت
"العَسَّ" صباحاً، مبكراً قبل أول ضوء، ومساءً، مبكراً قبل آخر ضوء،
يبدون كأشباح تتحرك فى غبشة الليل الواهن..

مرةً وحيدة، اقترب واحدٌ منهم فى مثل سنى، يحمل "حنشانا"
ضخماً يتلوى بين يديه القويتين المدربتين، وضعه بصعوبة فى سبت
الصيد..

قال: خذه يدفئك فى هذا البرد القارص

لم أعد إلى المنزل بغير هذا الثعبان الكبير، كان الماء يومها شديد
البرودة وصافيا كالمرآة، كنت أرى القاع الخالى من السمك..

يومها نظر أبى فى عينى، قلت له الحكاية، ربت على كتفى وقد
اطمأن، هذا "الحنشان" الضخم له قوة الحصان وهو فى الماء، لا
تصطاده غابة صغيرة أو كبيرة، يومها طبخته أمى "مدفونا" فى الأرز
البنى..

لا يزال طعمه الدسم عالقا فى فمى، أتذكره دائما فى أيام البرد
الشديد .

أبويوسف

يترك الصيادون "فلايكهم" على شط البحيرة، يربطونها في أوتاد كبيرة مغروسة في الطين، إلا "أبويوسف"، يحمل قاربه الضخم بين ذراعيه كما يحمل الطفل الصغير، يضعه على عارضة ذات عجلتين كبيرتين، يدفعه أمامه مثل عربة المدفع، وعندما يصل إلى بيته في "الحرية" يفرد الغزل بين عودين سميكين من "البامبو"، يرتق ما تمزق، ثم يتركه ليجف في شمس الشتاء الحنون..

يقوم، يقلب الفلوكة على وجهها ويدخل إلى حديقة البيت، يحضر الخشب وعلبة "الغراء" وعلبة "القار" وعلبة "البوية"، يضع علبة الغراء فوق النار، ثم يبدأ في ترميم ما يحتاج إلى ترميم.

كانت شمس "الحرية" في ذلك الزمان عفية طازجة تملأ المكان بالدفء والنور، وكانت الشوارع واسعة والناس قليلة.

بعد أن قتل "اليهود ولده" مصطفى في "ستة وخمسين" في "سيناء" ناداه الناس بأبى "يوسف" حتى لا يقلبوا عليه المواجه،

قال بعض من كانوا مع "مصطفى" فى الأسر قال "اليهودي" : لا تنظر إلى هكذا أبعد عينيك عني ثم أفرغ مدفعه فى صدره وظل يصرخ فى جنون .

أعطى الله أبا "يوسف" بسطة فى الجسم، ورثها ابنه "يوسف" و"حسن"، العينان النفاذتان، والصدر العريض، وهذه النقطة الغائرة فى منتصف الذقن، مثل نقطة "كيرك دو جلاس" تماماً، وذراعان من الفولاذ...
نجلس بجواره، نرتاح من لعب الكرة، أنا و"كمونة" و"حسن"..
يقول: ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟

أقول له فى كل مرة: أريد أن أسافر مثل "يوسف" وأركب البحر الكبير
يضحك و يضمنى إلى صدره فى سعادة..

وفى كل مرة أيضاً يقول "حسن": أريد أن أصبح جندياً فى حرس الحدود
يظهرون على شاطئ البحر بعد الغروب، يمنعون الناس عن البحر
بالليل، بالزى الكاكى النظيف والبندقية على الكتف، يذرعون الشاطئ
جبهة وذهاباً، منظرهم يأخذ الأبواب والقلوب، والشمس تعكس ظلهم
الممتد على الرمل المبلول، حتى ليبدو الواحد منهم فى طول "العون".
أما "كمونة" فيقول: أريد أن أصبح غنياً، ولا يزيد،

يضحك أبو "يوسف" ويقول: يا خوفى منك و عليك يا "كمونة".

يوسف الغيطانى .

يأتى بلا ميعاد، ترتبط زيارته بصدفة عبور الباخرة التى يعمل عليها للقناة، أحيانا كل شهر أو شهرين و أحيانا يمر العام دون أن نراه، يعرفه عمال الرباط، يربطون سفينته فى "الغاطس" لتنتظر دورها فى العبور ثم يأتون به معهم فى "البلوط" إلى بورسعيد، يبقى ساعات وأحيانا أياما يكون فيها ملء السمع والبصر بجسده الرشيق ووجهه الحليق وشعره البنى اللامع وملابسه الأنيقة، فى الصيف القمصان الخفيفة الفاخرة بألوانها الفاتحة، فى الشتاء البلوفر الصوف الأسود أو البنى أو الأحمر الفاقع والجاكيت الجلد الثمين، لا يلبس أحد فى بورسعيد مثل "يوسف الغيطانى"، يجلس عن يمين أبيه، و بجواره، نجلس، أنا و"كمونة".

يحكى لنا عن الدنيا الواسعة التى يجوبها شمالا و جنوبا، عن الموانئ الهائلة "هونج كونج" "دلهى" "سنغافورة" "جنوه" "نيويورك" و "طوكيو"، وعن الناس المختلفين وعاداتهم، يرسم دائرة فى الهواء

بكفيه ويقول: بورسعيد نقطة صغيرة فى هذا الكون الكبير

أقول فى غضب: بورسعيد أم الدنيا

يقول: أم صغيرة مثل أم "الأسكة"

أقول فى سرى: بل مثل "أمى" طولاً وعرضاً وبهاء

لا يتكلم عن النساء أمام أبيه الذى يقول له دائماً: إياك والحرام يا

"يوسف" "النسوان والخمرة"، ليس لك فى الغرب إلا ذراعك وربنا

فلا تغضبه

يضحك "يوسف" ضحكة صافية مجلجلة ويقول لأبيه مشاكساً:

الدنيا تتطور يا "أبو يوسف" سأحضر لك "موتورا" لقاربك فى زيارتى

القادمة

يقول أبو "يوسف" وهو يتصنع الامتعاض: أنا لا أحتاج موتورا،

الموتور لأمثالكم أيها الكسالى

فى الصباح يلعب الكرة مع الصغار وفى العصر يلعب "اللجم" مع

الكبار يقول هذه اللعبة أمريكية اسمها "البيسبول" ويحبها الأمريكان

بشدة، لم يصدقونى عندما أخبرتهم أننا نلعبها فى "بورسعيد"، فى

المساء يرقص فى "الضمة" رقصاً لا مثيل له يضربون به المثل، يقولون:

فلان يرقص ولا "يوسف الغيطانى".

يحضر معه فى كل مرة علب الفاكهة التى نعرفها والتى لا نعرفها،

"الأناس" و "الخوخ" و "الكريز" و "الكمثرى" وكذلك "الكافيار"،
يحضر أيضا علب اللحم الخاص بالكلاب يعطيها "للأسكى".

يقول الناس: "الأسكى" يأكل طعام كلبه

عضه مرة فخرج يجرى بعرجته والكلب معلق فى قدمه السليمة.
يحكى لنا "يوسف" عن البحار الكبيرة يقول: بحرنا بالنسبة لها
بحيرة صغيرة والمحيط شىء مهول لا أول له ولا آخر، عندما يهيج
تكون أمواجه كالجبال.

يحكى عن بلاد حرها شديد مثل جهنم، وبلاد كلها ثلج.. فوق
الشجر وعلى أسطح البيوت وعلى الإسفلت، لو شافها (دنجل) بياع
الثلج ينهبل.

على يسار "أبو يوسف" يجلس "حسن" صامتا مثل أبى الهول،
يحترمه الكبار ويهابه الصغار يسمونه "حسن الأسد".

يقول "أبو يوسف": أنت مثل "يوسف" و "حسن" مثل "كمونه"
قبل أن ينفلت عياره

حينما يرتفع صراخ الجدة "لكمونه" يقول لها: مفيش فايدة يا "أم
الدسوقي" عليه العوض

عندما قاطع العمال العرب السفن الأمريكية، كانت "سفينة"
يوسف "فى" "نيويورك" ومنها جاء خبره.

قالت الرسالة: مات فى مشاجرة مع ثلاثة من "اليهود"
صاح "حسن": غدروه.. "يوسف" لا يموت فى مشاجرة مع
عشرين رجلا

ربط أبو" يوسف" قاربه فى وتد كبير على شط البحيرة وجلس
أمام بيته، يتكلم مع "يوسف" يوبخه أحيانا، وأحيانا يضحك معه،
وأحيانا يقول: أنا السبب حذرتك من "الخمرة" ومن "النسوان" نسيت
أحذرك من "اليهود"

وفى كبد الليل تخرج صرخته مثل أسد جريح: غدروك يا ولدى
أنت "فين" يا "يوسف" .. ساعتها تملأ الدموع كل بيت فى "الحرية".

الأسكى

جلست "أم الدسوقي" أمام بيتها فى الصباح، نظرت إلى الناس كأنها تراهم لأول مرة، الناس لم يعودوا هم الناس، هى أيضا لم تعد هى، أصبحت عجوزا و ثقل الحمل عليها، عندما ماتت "فاطمة" وهى تلد "كمونة" تشاءم الناس من الولد حتى أباه تركه، خرج و لم ينطق بكلمة واحدة، كانت ابنتها "خضرة" مخطوبة لرجل ثقيل لا تحبه رفضت "أم الدسوقي" فسخ الخطبة، اختلف الأمر بعد موت "فاطمة" و كان أبو "كمونة" رجلا طيبا قبلته "أم الدسوقي" حرصا على مصلحة اليتيم، ولكن تقدرون و تضحك الأقدار، رفض العريس والعروس الطفل، هى لا تنكر أنها سعدت بذلك فقد تعلقته به بشدة فهو ولد الولد كما يقولون خاصة و أنه أعاد إليها أمومتها الضائعة، أسال اللبن من صدرها العاجف، لبنا غزيرا مشبعاً، قدر من السماء وهى المؤمنة تقبلت قدر الله، و لكن الآن وقد وهن منها العظم و كثرت مشاكله فى الشارع ومع الجيران أصبح الأمر فوق طاقتها.

- صباح الخير يا "أم الدسوقي"

- صبحك الله بالخير، مالك ؟

- الكلب يا "أم الدسوقي"

- ماله

- حاله أصبح عجب

ضحكت "أم الدسوقي"، أمس جرى الكلب وراء صاحبه بطول الحرية و عرضها و الناس تضحك ولا أحد يحوش، يقولون: "الأسكى" يأكل طعام كلبه

قال "الأسكى": قبل يومين من وصول خبر "يوسف" جن الكلب وقف فى الليل يعوى، لم أستطع النوم وخفت من الجيران فضربته بالعصى فهجم علىّ، أصبحت أخاف منه و لم يعد يسمع الكلام، أجرى و هو ورائى و الناس تضحك، يقول "كمونه" ضع له السم فى الطعام، قلبى لا يطاوعنى يا حاجة، قلبى لا يطاوعنى، الليلة ظل يعوى طول الليل ألطف يا رب ألطف يا لطيف..

يتشاءم "الأسكى" من عواء الكلاب رغم حبه الشديد لها..

يقول: عواء الكلاب أنواع، ولكن هذا العواء يا حاجة لا يخيب أبدا، سمعته يوم حريقة المناخ الكبيرة ويوم أن داست الدبابة الإنجليزية على قدمى فى العدوان الثلاثى، وقبل وصول خبر "يوسف"، ألطف بالطف، ألطف يا لطيف.

مضى "الأسكى" وازدادت حيرة العجوز، ما زال قلبها منقبضا،
قامت و توضأت، تصلى من قلبها، أطالت السجود، سالت دموعها
على السجادة و أكثرت من الدعاء.

سينما الأهلى

اليوم عيد الجلاء، استيقظت مبكرا، قليلا ما يزورنا "كمونة" فى الصباح،

قال بعد أن تناولنا الفطور: تعال معى إلى "سينما الأهلى" فيها فيلم جميل،

قلت: اتفقت مع عمى أن نذهب إلى "سينما الشرق" فى المساء، قال "كمونة": تعال معى الحفلة صباحية

فيلم عربى لا أتذكره ثم فيلم "لطرزان" والفيلم الثالث "لاستيوارت جرانجر" اسمه "سيف لانسلوت" .. فيلم "رومانسى" عن الحب والواجب فى عالم الفرسان .

خرج الأطفال من السينما وقد أمسك بعضهم بجريد الأقفاص يتبارزون فى الشوارع، ذهبت إلى محلنا فى شارع "كسرى" لم أجد أبى، على الطاولة الرخامية ترقد سكاكين الحلوى الطويلة، بدون كلام أمسك "كمونة" واحدة وأمسكت أخرى و ظللنا نتبارز، دافعت

عن نفسى ببراعة و "كمونة" يصرخ و يحاصرني فى الركن و عيناه
تقدحان شررا، لو شئيت أن أجرحه لجرحته كنت فقط أدافع عن
حياتى باستماتة، و لولا أن دخل أبى و فى يده عصا كبيرة لحدثت
كارثة لا يعلم مداها إلا الله، لم أترك سيفى إلا بعد أن خرج "كمونة"
من المحل وهو يجرى كالمجنون.

قال أبى: لا تمش مع هذا الولد بعد الآن

لم يصدق القاضى أن هذا الصبى البريء الواقف أمامه، قام وحده
بهذه المجزرة، ولكنه أمام القرائن والشهود حكم عليه بالسجن شهرين
مع التنفيذ.. رغم توسلات المحامى أن يوقف التنفيذ حرصا على
مستقبله، خرج العفريت المحبوس، أصبح "كمونة" عبثا ثقيلًا على
الشارع،

قال الناس: لولا العجوز لأحرقنا عليه المنزل

قبل هذه الحادثة كان يقفز إلى حدائق الجيران، يتلصص على
نسائهم، وينزو على حيواناتهم، الآن أصبح الجميع مهتدا.
قال لى مرة: ليس لى فى الدنيا نصير سوى هذا وأشار إلى ذراعه،
و هذا وأشار إلى ما بين فخذه، ثم نظر إلى الأرض فى خجل وأضاف
وأنت والعجوز

قلت لها: كمونة يحبك.. حرام عليك.. الرجل يكاد يموت هما.

قالت: صدقنى "كمونة" الذى تعرف مات، أرى الآن شخصا آخر
يملؤنى رعبا، لو أرغمنى أخى على الزواج منه لقتلت نفسى.
أخوها "حسن" الأسد.. الوحيد فى الشارع الذى يهابه "كمونه"
ويعمل له ألف حساب،
يبكى "كمونة" ويقول: كل شىء إلا "صباح" هى حياتى ونور
عينى، كيف تخاف منى؟ إننى أخاف عليها من الهواء الذى تتنفسه.

القطب

"المتولي" أصغر أخوالي، يناديه الناس "بالقطب"، يعمل فى الموانئ والمنائر، يتنقل بين جزر البحر الأحمر الكثيرة، قبطان السفينة التى تحمل المؤن والرسائل لحراس المنارات، يغيب بالشهور، أعرف مقدمه عندما أرى القواقع الكبيرة والصدقات الغريبة تملأ البيت، أمسك القوقعة من طرفيها المدببين، ليس فى بحرنا قواقع بهذا الحجم، أرفعها إلى أذني، أسمع هدير البحر، هذا الهدير يختلف عن هدير قواقعنا، أنزلق على حافتها الملساء، تسحبني أذني إلى عالم البحر الأحمر الغريب، لم أره ولكننى أعرف عنه الكثير من قصص ومغامرات هذا الخال "السندباد".

يصنع من القواقع تحفا رائعة، "أباجورات"، تماثيل، يقطع فيها ويعدل أشكالها، أحيانا يستخدمها كاملة مع قليل من التحوير، أصداف من كل لون وشكل، قطع من المرجان الملون، عالم رائع من الفن الرباني، يصنع أيضا من الخشب سفنا صغيرة ذات أشرعة،

غاية فى الدقة والكمال، يظنها من يراها، قادمة من عالم " جاليفر"
المسحوط، كنت أتعجب وقتها كيف أستطاع أن يدخلها فى تلك
الزجاجات البللورية الجميلة .

يقول وهو يضحك: سحر.. ألا تعرف أننى ساحر؟
الستائر البيضاء الشفافة مسدلة فوق الشبابيك، حجرة خالى مغلقة
كى لا يدخلها الذباب، وجدتى تحرس الصمت حتى لا يقوم غاضبا،
يتحمل "كمونة" هذه الأيام القليلة على مضض، يكره هذا الخال
الصريح مثل البحر.

- اسمع يا بنى أنت تأكل من طعام هذه العجوز، اذهب إلى أبيك
هو أولى بك
يكره خالى ويخشاه.

فى كل مرة يعطى خالى أمى منديلا، فيه بعض اللآلى الصغيرة،
تضعها فى صندوق خشبى مصدف، كان يربى اللؤلؤ فى جزر البحر
الأحمر، بعد عدة زيارات، يأخذ الصندوق ويسافر إلى القاهرة.
تقول جدتى: "القطب" مرزوق من يومه، إذا أمسك التراب يتحول
فى يديه إلى ذهب

قالت أمى: اتق الله فى "كمونة" .. اتق الله فى اليتيم يا أخى
قال: صدقينى إننى أرى الموت فى نظرتة.. إنه قاتلى و قاتل

العجوز.. العجوز تربي الموت في بيتها

عندما هاجم اليهود جزيرة "شدوان" بقى مع الرجال

قال مساعده : قفز الرئيس "متولي" إلى الماء وسط الرصاص، عاد إلى الجزيرة من الجهة الأخرى رأته يصعد التبة العلوية، أزاح الشهيد "محمود"، أمسك الرشاش الثقيل بين يديه، وانهمر الرصاص كالطر، قتل كل اليهود على المنحدر، كانوا يفرون من أمامه كمن يرون عفريتاً.

نوح الحمام

يضحك من قلبه فى سعادة وهو يحتضن الدنيسة الفضية وهى لا تزال عالقة فى السنارة، يحادثها كما كنا نفعل ونحن صغارا: "تعاليلى يا بطة يا أم قتب" .. تعالى تعالى .. يصبر عليها حتى يهدأ اضطرابها فى صدره، ثم ينزع السنارة من فمها المسلح قبل أن يضعها فى سبت الصيد، نجلس على الحجر الأصفر عند الكيلو "18" جنوب المدينة، نأكل ونضحك، ننظر إلى السفن العابرة.

- هذه سفينة ركاب

- تلك ناقلة بترول .. تذهب إلى الجنوب فارغة و تعود محملة بثروة العرب المنهوبة.

- ليست فارغة تماما يملأون "التنكات" بالماء العذب .. هى ذاهبة إلى حيث نقطة الماء أعلى من نقطة البترول

- لا بد من ملء التنكات حتى تتوازن السفينة ولا تنقلب .. يملأونها من ماء البحر عند الضرورة

يمسك بحصاة صغيرة يلقيها على فأر أطل من بين أحجار الشاطئ
المتأكلة

- تعرف كنت أدعو الله وأنا صغير أن أظل صغيرا إلى الأبد..
كنت أعرف ما ينتظرني وأخاف منه

لحظه من لحظات الصفاء التي أحس فيها أننا أخوان حقيقيان

- لم يجبرك أحد على فعل ما فعلت

- أنت تقول ذلك.. لو كنت مكانى لتغير الحال

أحبه مثل أخى.. لو كان لى أخ شقيق ما أحببته مثل ما أحببت
كمونة، هو يعلم ذلك، يتعامل معه الجميع بحساسية الولد اليتيم إلا
أنا، أتعامل معه بتلقائية الأخ لأخيه، ربما لم تكن نظرته لى على نفس
المستوى، أقدر ظروفه وأعذره.. دائما كنت أجده العذر.

قال: أبوك يرميك وهو حى.. خالتك زوجة أبيك ترفض أن
تضعك مع إخوتك.. خالك الذى تأكل من طبقه يذكرك كل يوم
أنك تسرقه، وأنا صغير كانت العجوز تحمينى.. يوم الحادثة ذهبت
إلى الفرح، وقفت فى حلقة "الضمة"، صوت "السلك" الشجى،
وصوت المغنى الرخيم.. كان يغنى "نوح الحمام"، والعريس و
العروس، وشاب نحيف يرقص، يقلد "يوسف الغيطانى" ولكن "هو

فين و يوسف فين"، وهواء الصيف يبهج النفوس إلا نفسي، كنت أفكر في مستقبلي.. أنا لا أحلم أبعد من المدرسة المهنية التي بناها "عبد الناصر" في الحى الفقير، طموحى أكبر من ذلك و لكن عينى بصيرة ويد العجوز قصيرة، كنت أحلم بوظيفة سريعة حتى أتزوج "صباح"، وتصبح لى حياة مستقلة، بعيدا عن خالك ونكده.. أنا أختلف عنك أنت تعيش فى حضان أمك وأبيك

"أول مرة أراه يتيما، عيناه تجهدان أن تبتلعا دمعهما الساخن"

- فى هذا الوقت بالذات وقعت اللطمة على قفاي، استخفهم الحشيش فاستضعفوني، قاومتهم غلبوني، قهرونى بكثرتهم والناس تتفرج، هؤلاء الجيران الكلاب، لو كنت ابنا لواحد منهم لقامت الدنيا ولم تقعد.. دخلت إلى المنزل مجرحا ومهانا، العجوز نائمة، مجرد عجوز ضعيفة تثير الشفقة، خجلت أن أوقظها لأشكو لها.. وقعت عينى على السكين الكبير، يشبه السكين الذى تبارزنا به أنا وأنت فى الصباح، هل تذكر؟

عدت إلى الفرح لأسترد كرامتي، وحدى وبذراعى ضد هذا الكون الظالم، تمنيت وقتها أن تكون فى يدي قنبلة أنسف بها الجميع، صدقنى كنت مدفوعا بقوة أكبر مني، ربما هى قوة الحياة، أو ربما هى قوة الموت،

لا فرق ثم من يستطيع إيقاف حجر يتدحرج من قمة الجبل
ثم نظر إلى الرمل تحت قدميه وقال: لا تصدقنى إذا قلت لك إننى
لم أعتد على امرأة فى حياتى .. يطاردننى ، هؤلاء النسوة الملاحين .

باندونج

كنا صغارا والهواء متوقف فى البحيرة، والقلوع خاوية ومرخية،
والحر، والرطوبة تنز عرقا على لحمنا الساخن، غلبنا النوم، نزلنا إلى
جوف المركب، النسوة الفلاحات، وأقفاص الدواجن الفارغة، يأتين
بها ممتلئة ويعدن بها خاوية، يجلبن للمدينة خير الريف عسل النحل،
السريس، الحميض، الجعضيض، الجبن القريش، الزبدة، البيض،
البط، الأرانب، الفراخ الفلاحى.. العتائق والبرابر.
يضعن رؤوسهن على أى شىء ويرحن فى سبات عميق كأنه
الموت.

فى المدينة ينمن فى الشوارع على الأرصفة، نوما خفيفا متقطعا
بجوار أقفاصهن، فى جماعات صغيرة طلبا للدفع وللأمان .
يملأن المدينة فى المواسم والأعياد، فى رأس السنة يجلبن
للخواجهات الديوك الرومى .. يجلبن أيضا الخاديات الصغيرات .
يحلقن عند "باندونج" الحلاق قبل الحمام.. لا بد أن تسلم

الفتاة سليمة ونظيفة لسيدتها فى حى "الإفرنج" .. فتيات نحيفات، صدورهن فى حجم الخوخة الصغيرة، ينتظرن فى خضوع بجوار باب المحل، يمسك الحلاق الخبير الرأس الضعيفة كما يقبض على جوزة هند صغيرة، يمسح شعرها بالموسى، تخرج من تحت يده صلعاء بيضاء لا تسر الناظرين، تدوس تاجها بقدميها الخافيتين، لا يتركها إلا بعد أن يمسح رأسها بالجهاز، ليقضى على كل أثر "للقل" و"الصثبان"، يتغير شكلها إلا عينيها المرتاعتين، موميאות عجفاوات خرجن توا من تابوت فرعونى قديم، لا يدرى من ينظر إليهن إن كن ذكرانا أم إناثا، يتابعهن "باندولج" بنظره مثل كاهن فرعونى حكيم يدرك خطورة ما يفعل، يعرف تأثير هذه النقلة الجسدية الكبيرة، على تلك الأرواح الغضة المتكسرة، يغسل يديه ويطهرها "بالديتول" قبل أن يجففها فى فوطة قديمة متقرحة، يبدو مثل طبيب ماهر قام بعملية جراحية ناجحة، ينظر إلى نفسه فى المرأة وجهه متورد وفخور.

تمشى القروية العجوز بردائها الأسود السابغ وخلفها هذه المخلوقات التى شكلها "باندولج"، "نعاج" صغيرة تساق للذبح على مذبح الفقر، يذهبن إلى "الإنكلستوما" يتجرعن شربة الدود شديدة المرارة.

عائدات إلى قراهن، النسبة الغالبة من العجائز، تبقى النساء

المسافرات على سطح السفينة فى جماعات، لاينزل إلى القاع سوى هؤلاء النسوة المرهقات والأطفال .

اليد الخشنة المدربة تعبث بى، صحوت وناديت أمى، أحضرت الماء، شربت وعدت ثانيا إلى النوم.. تكورت على نفسى وأنا أضع وجهى فى الألواح الخشبية المقعرة، بقى كمونة فى مكانه وسط هذا اللحم المكدود.

فى الصباح تمد المرأة يدها بالرغيف الأحمر: خذ يا ضنايا أمك
تقول أنك تحب "العجوزة"
- لا أحب "العجوزة"
- تحب الجبنة أم العسل ؟
- لا أريد شيئا

ربما تلك اليد الممدودة هى العابثة بى فى الليل،
تقلب المرأة نظرها بينى وبين كمونة الذى يأكل فى صمت .
فتاة يافعة جلست بعيدا ترقبنا بعينين، ترك الشقاء بصمته الواضحة
فيهما، ما حدث بالليل ضاع مثل حجر سقط فى البحر، لم أتذكره إلا
الآن.

قلت له وأنا أضحك: هل تذكر زوجة مصباح اللبان ؟
تجهم وجه "كمونة" وقال: الله يسامحها، هى الآن فى المكان
الوحيد الذى يملأ عينيها الفارغتين.

فرحة

نتنافس أنا و "كمونة" فى كل شىء... ركوب الدراجات، لعب الكره، "البلى"، "السويسية"، أغلبه فى أشياء ويغلبنى فى أخرى.
يفتخر "كمونة" بسبقه مع النساء، مع الوقت بدأ يحزن لانصراف الفتيات عنه، يقمن من المجلس إذا حضر.

قالت زينب: لا نحب نظرتة القبيحة

فى الواقع نظر "كمونة" ضعيف، وهو فى الأصل خجول، أكثر ما ينظر إلى الأرض، ولكنه الوهم، وهذه الشهرة الفاشية بين النساء، خاصة بعد حكاية "فرحة" زوجة "مصباح" بائع اللبن، أتى بها من الريف بعد موت زوجته التى لم تترك له عقباً، أحضرها بابنتها الصبية... يُحضر الرجال فى مثل ظروف "مصباح" فتيات أبكاراً، يفرحن بالقدوم إلى "البُلط"، لا ندرى ما الذى دفع "مصباح" إلى فعل ذلك، صحيح "فرحة" جميلة مثل خوخة ناضجة وصغيرة السن لا نكاد نفرقها عن ابنتها، ولكن الزواج قسمة ونصيب كما تقول "أم الدسوقي".

تعود "كمونة" أن يكون محلا للعطف المبالغ فيه من النساء،
يترحمن على أمه ويشبعنه أحضاننا وتقبيلا، بعد أن أصبح صبيا يافعا
قلّ حدوث ذلك خاصة أمام العجوز، وبعد أن بدأ الصبي يتذوق
القبلات والضم .

يحكى لى عن خبث النساء، خاصة الأرامل والمطلقات، قال:
عندما قبلتني "فرحة"، أحسست أن وجهي اشتعلت فيه النار
كلما رآته قبلته، في أى مكان وفي أية مناسبة، عشقت "فرحة"
الفتى "كمونة"، أشاعت أنه تكلم مع "مصباح" عن ابنتها حتى تبرر
دخوله وخروجه من بيتها، نفى "كمونة" هذه الإشاعة، الكل يعرف
حبه "لمصباح" أخت "الأسد" .. نفور "صباح" المفاجئ من "كمونة"
جعل لشائعة "فرحة" يدين ورجلين.

قال "لفرحة": أنا أم "مصباح"

قالت: أين أنت منه "مصباح" رجل "ملوهدومه" .. أنت عيل

ثم تنهدت وقبلته وقالت: ولكن القلب وما يريد

في إحدى المرات أقبل "كمونة" مبتهجا قال: لبدتُ "لمصباح"
حتى رأيت يبول في الخرابة، جريت نحوه ورأيت شيئه، صغيرا مثل
قرن "القول الحرادي"، يضحك "كمونة" ويقول: الكدابة بنت الكلب
أصيبت "فرحة" في حادثة سيارة، قطعوا ساقها حتى تعيش،
هجرها "كمونة"، لم يدرِ العام إلا وجاء أهلها .. أخذوها معهم ليدفنوها
في قريتها.

صيف حار

الصيف أجمل الوقت، فيه تمتلئ المدينة بالأغراب، فيه أيضاً النساء
يكشفن كنوزهن التى ظلت مختبئة فى الشتاء تحت ملابسهن الثقيلة
الظالمة.

يعطينى أبى افضل ما ينتج من "البقلاوة"، الأكبر حجماً والأجمل
شكلاً، يسقيها بالسمن البلدى الساخن لحظة خروجها من فرن "عزت"
يحمّر وجهها فى الحال، يسقيها بالعسل الأبيض الشفاف فتظل تشرب
حتى يخفت هسيسها.

لحظة وصولى إلى الشاطئ تتزاحم الأيدي، انتهى فى دقائق
قلت لأبى: أعطنى أكثر

قال: بارك الله فيما رزق، بالقليل يسعون إليك، بالكثير يزهدون،
فتسعى أنت إليهم.. وتفقد من نفسك

نخلع ملابسنا، نتسابق إلى البحر أنا "بالشورت" الذى صنعته أمى
من بنطلونى القديم، قصت أرجله من فوق الركبة، جعلت له حافة

مثنية مستوية وكأنه مصمم أصلاً للماء، و "كمونة" بلباسه الكتان
الفضفاض، نخرج مبللين تتناثر القطرات حولنا من شعرنا وجسدنا
الساخن، ندارى أعضاءنا التى شكلها الماء تحت القماش المبتل، نتوارى
خلف أى حائط فى مواجهة الشمس، ننتظر قليلاً حتى نجف ثم نرتدى
ملابسنا ونمضى.

قالت المرأة بصوت كالفحيح، وهى تنظر إلى لحمنا البرونزى
وأجزاءنا البارزة التى أنعشتها حرارة الشمس وسخونة الملح: أدخلنا
لتغسلنا جسدنا بالماء العذب.. أنا وحدى

امرأة بيضاء، فى آخر الشباب، اعتذرنا ومضينا
قال "كمونة": نسيت شيئاً ربما وقع فى الرمل، اذهب أنت وسألق بك
.. صعدت الدرجات القليلة التى تؤدى إلى البلكونة المفتوحة
على البحر، من بين فتحات الشيش المغلق "كمونة" عاريا يصهل
والمرأة تحته، كتلة من اللحم الأبيض الفاره، تعجبت وقتها كيف لهذا
الجسد الصبى يسبغ سطوته على هذا الجسد الأنثوى الكبير؟ تتنقل
كفاه بسرعة واضطراب بين الصدر والبطن والوركين، يتخبط مثل
غريق سقط فى بركة من اللبن، كفاه تتبدلان فى تشنج واضطراب،
يكبش فى اللحم ويتحشرج والمرأة تقوده، تمكنه فى غنج ونشوة وهو
يعلو ويهبط عنيفا ومتوحشا.

دخلت بيتنا لم أنظر فى عينى أحد، اتجهت إلى الحمام مباشرة،
بقيت تحت الماء فترة طويلة أطفئ جسمى بالماء الطاهر.. أغسل أثر
الملح والنجاسة.

كلوت بك

ما إن غادر الرجل الغرفة حتى سقط بجوار حقيبته، نظر إلى الباب المفتوح ثم مدد رجله، أسند رأسه إلى الحائط الجيرى خلفه، ثلاثة أيام، أطول ثلاثة أيام فى التاريخ، وما رأى مختلف تماما عما سمع، فهذه قهوة "الجعافرة" فى شارع "كلوت بك"، لم يرَ فيها ذلك النصاب الذى حذروه كثيرا منه، فقط هذا الصعيدي الشاب برقبته الطويلة وعمامته الناصعة، يشبه تماما ذلك الصعيدي العجوز المعلق فوق رأسه فى إطاره العتيق، نفس الأنف الضخم والعينين النفاذتين إلا أن شارب العجوز فيه بدائية و ضراوة.

- الحساب بعدين أنت اليوم ضيفنا

كيف عرف أننى غريب؟ لا بد أن يعرف أى انسان أننى غريب، هذه الحقيبة المرهقة، وهذا الانطواء والتوجس، وذلك الاندهاش الحذر، والعينان الثقيلتان.. لا يحتاج الأمر لفراصة من أى نوع .

- "كلوت بك" طبيب إنجليزى

قال الشاب النحيل لزميله فى الطاولة المجاورة
أه يا "سعد" كم من الخرافات عن القاهرة ملأت بها رأسى؟
ذكر "سعد" سببا آخر لتسمية الشارع.. سبباً له علاقة بملايس المرأة
الداخلية.

قال: هذا الشارع تمارس فيه النساء أقدم مهنة فى التاريخ
بعد أن ضبطه أصحاب البيت يقبل ابنتهم فى الحوش المظلم، خلف
ورشة عمى "أحمد" فر "سعد" إلى القاهرة.. ولد جميل وسط اخوة
عجاف.. شعر أصفر، عينان خضراوان فى وجه أبيض كالخليب،
أمه نحيلة سمراء فمها ضاحك على الدوام.

تجلس على "البسطة" الكبيرة أمام باب بيتنا المفتوح
تقول: آخذ نفسى الأول، هنا "طراوة"

فى كل مرة تفعل ذلك وعلى صوتها تتجمع النساء من بيدها ثوم
أو أرز، يجلسن بجوارها على "البسطة" الكبيرة، وعلى درجات السلم
الخشبى.. تجلس "أم العربى" "أمى" فى "فسحة" بيتها بجوار الباب
أمام "البسطة" الكبيرة.

فى موسم "الجمبرى" يتحلقن حول "الطشت" الكبير لا يحلو
تقشير الجمبرى إلا على حكايات "أم سعد".

تقول "أم العربى": كل واحدة تمد "حلتها".. تسمى وتكبش من

الصينية الكبيرة.. فيها كل الجمبرى الذى تم تقشير..

تضع فى الحلل و هى تقول: بختك يا أبو بخت

تعرف عدد كل أسرة.. لا ينظر أحد إلى يدها فالكل عينه مليانة.

نشم رائحته الفواحة من أول الشارع ونحن قادمون من المدرسة،

خاصة "المدفونة" فى الحلة النحاسية الكبيرة، التى لا بد أن يرقص فيها

عم "محفوظ" مبيض النحاس مرة فى الأسبوع على الأقل.

ما أشهى هذا الأرز البنى المختلط بالجمبرى الطازج.. ماهرات

هؤلاء النسوة فى طبخ كل ما يخرج من البحر، الحارات ضيقة

والبيوت ضيقة وقلوب الناس واسعة بيضاء وعامرة، والبركة من الله

كما تقول "ماما نعيمة" "أم العربى" يثqn بها يسلمن لها القيادة عن

طيب خاطر.. تنظم "الجمعية" وترتب أدوارها فهى أعلم بظروف

الجميع، تحتضن المولود الجديد.. تؤذن فى أذنه لحظة ميلاده، وتطوف

به فى البخور يوم "السبوع"، تحرم أذان الفتيات وتنصح الأمهات

بختان أولادهن وبناتهن إذا آن الأوان..

تقول للداية: "خفى إيدك.. حاجة كده باسمن ومن"

تضحك "أم العربى".."أمى" حتى تدمع عيناها و"أم سعد" تحكى

كيف اقتادها الناس إلى قسم الشرطة و"سعد" على كتفها لا يكف

عن الصراخ، لم يصدقوا أنه ابنها من دمها ولحمها، "لأم سعد" أداؤها

الخاص عندما تحكى.

تقول أمى : لا تصدقوا "أم سعد" لو قالت : البحر ملآن بالماء
- ستجدنى فى " الفوطية " قريبا من "كلوت بك"
- الفوطية كبيرة ألم يقل لك فى أى "عطفة" ؟
"عطفة" ا كلمة جديدة على أذنيه .. أول كلمة يسمعها من المعجم
القاهرى .

الصيف عندنا موسم الماء .. المالح أولا ، بعده العذب ، بعده الملابس
الخفيفة النظيفة ، والهواء المنعش ، ما الذى أتى بى إلى هذا الجحيم ؟
هذه التعب والعرق وهذه الحقيبة التى تزداد ثقلا مع الوقت ، ينتقل
بها من ورشة إلى ورشة .. فتحة صغيرة فى جدار ثم تنفتح على قبو
مظلم ممتد .

يتفرس فى هذه الوجوه الضامرة ، وهذه الكائنات المصنوعة التى
تشبه الفئران ، خلعوا قمصانهم ، منكبون فوق البنك ، عيونهم فى نعل
الحذاء أو فى وجهه ، أذرعهم النحيلة تتحرك بسرعة و حذق ، رغم
الظلام والعرق والحر و قلة الهواء ، ورائحة الجلد الفاتحة .

يقول عمى "أحمد" : القاهرة ملعونة تأخذ الرجل لحما وترميه
عظما ، ومع ذلك من أراد أن يمسك فلوسا فليذهب إلى القاهرة ، أما
الصناعة فإنها فى الإسكندرية الإسكندرية حاضرة دائما مع هذا العم
الوسيم الذى يشبه نجوم السينما ، يقف أمام مرآة الدولاب الكبير يمشط

شعرة الطويل يعدل "البوجودينو"، يضع "الكولونيا" ذات الرائحة المميزة.

يأتى بلا ميعاد، أحياناً فى الصيف وأحياناً فى الشتاء، يأتى مبتهجاً وبالغ الأناقة، يرفعنى فوق الدولاب الكبير ويقول: لن أنزلك إلا إذا بكيت.

وأنا أضحك وأمس سقف البيت الأبيض العالى، بمنحنى خمسة قروش كاملة ويضحك بصوت عالٍ مجلجل.

فى أوقات أخرى يزورنا مشعثاً وصامتاً، ولا أراه إلا فى المساء، يأكل ثم ينام على الكنب الكبيرة بجانب الراديو "الفيليبس" الكبير، يستمع إلى "أم كلثوم" فى الظلام، وكما يأتى فجأة يختفى.

يقولون على "الأورنة" "الإمة" والنساء يشربن دم "الترسة" المدبوحة ساخناً، ويقولون "أحيه" هذا اللفظ الذى لو قالته المرأة عندنا لذبحها أهلها.

يتكلم عن سينما "الهامبرا" "ريالتو" وماجيستك"،

أقول: كما أخذوا سينما "ريالتو" يعطوننا سينما "الهامبرا"

يضحك ويقول: "الإسكندرية" جميلة بصحيح

أقول غاضباً: "بور سعيد" أجمل بلد فى الدنيا

يتكلم عن الخواجة صاحب العمل يقول: يحبني، يعطينى أعلى

أجر فى الورشة، أنا آخر من يجلس على البنك وأول من يقوم، يسك
بالخذاء يقلبه بين يديه يضعه أمام الجميع ويقول: أريدكم أن تصنعوا
أحذية مثل التى يصنعها "أحمد".

غريب الدقناوي

ورش "القاهرة" قدرة وقاسية ولها رائحة نفاذة.
كيف يتحمل "سعد" الحياة فى هذه القبور المتقيحة؟
تغور "القاهرة" بفلوسها يقول الأسطى "غريب الدقناوي" وهو
يضع الجوزة بقرف ".. يلعب الجميع الكرة "الكياس" فى الشارع
أمام الورشة ويظل الأسطى "غريب" جالساً أمام "بنكه" وتحت
قدميه "سعد" لا يفارقه، يجهز له "الجوزة" و"كراسى المعسل المعمر
بالخشيش" .. الوحيد الذى يحشش وهو يعمل، فهو أسطى الجميع ..
الكبار قبل الصغار.
يحكى لى "سعد" عن ورشة الأسطى "غريب" فى القاهرة،
وكيف جرى المال فى يديه فتزوج قاهريتين جميلتين، واحدة سمراء
والأخرى بيضاء،
يفتح سعد عينيه على آخرهما ثم يقول فى صوتٍ خفيض: كان
ينام معهما فى سرير واحد.

الآن ضاعت الصحة والفلوس وها هو فى ورشة عمى أحمد
يحكى القصص التى لا تنتهى عن النساء.

يقول: النسوان لا تحب البخيل

ثم يتنهد ويقول: الحمد لله على الفقر والجدعة

إذا دخلت عليه القهوة لا يمكن أن تدفع الحساب، فى الخناقات
يدافع عن صديقه بروحه، ولا ينظر فى وجه جارته، رغم ولعه الشديد
بالنساء.

لماذا كلما أراه أتذكر "انطونى كوين" فى "مدافع نافارون" وفى
"زوربا اليونانى" وأتخيله دائماً فى دور الأسطى "غريب الدقناوي"..
هذا العجوز الطويل بشعره الرمادى الجميل و"الكاريه" فى مقدمة
رأسه مثل عرف الديك، وهذه الشعرات المهملة الساقطة على جبهته،
وشاربه الذى يكتمل به هذا الوجه الرجولى الوسيم وهذه الأناقة
البسيطة الراقية وهذه القصص العجيبة عن النساء.

يخرج من "زقاق" ليدخل فى "زقاق" .. كل هذه البيوت القديمة
والمشربيات والمساجد والأسبلة، خذوا سنيى والجامعة وكل شىء
فقط دعونى أسكن هنا.

بينه وبين المكان ألفة دفينه أمر متصل بالجذور، بالجينات، بالتاريخ
والجغرافية، والثقافة والدين، والحضارة والوجود، شىء فى الدم
والأعصاب.

لم يعد يرى وجوه العابرين ، عبر البوابة المستحيلة ، خرج من سلطان الزمن ، هذه الورش تختبئ تحت إبط التاريخ ، هذه السلاالم الصخرية القديمة ينزلها أو يصعدھا . . كيف سمحوا لهذه الورش القدرة أن تزعب التاريخ بهذه الصورة البشعة؟

يضحك الرجل القاهري ويقول: هذه المباني ملك للحكومة وهي خرائب كما ترى .

دخل الميضة معه حقيبته القديمة التي يزداد ثقلها مع الوقت ، خلع حذاءه الحديد ، لبس القبقاب الخشبي الضخم ، كاد أن يقع وهو يرفع رأسه حتى يرى سقف المكان العالي ، الجدران قديمة وحجارة الأرض الضخمة حفرت فيها أقدام الناس ، وهذه الرطوبة المعتقة ، والهواء . . كل هواء القاهرة معبأ في هذا المسجد الكبير .

حاول أن يركز في الصلاة ، عندما انتهى أخيراً جلس على الحصير الرطب بجوار العامود العملاق يتأمل هذا التاريخ الحى .

لوكاندة السعادة

فى لوكاندة السعادة فى أول شارع "كلوت" بك من جهة "العتبة"
قربا من قهوة "الجعافرة"، قضى أول ليلة فى القاهرة، جلس فى
البلكونة الصغيرة ذات السور الحديدى الرفيع ينظر إلى الشارع العتيق،
أين يا رجل النساء الفاتنات الواقفات على النواصى وعلى عتبات
البيوت؟ .. على الواقف "بشلن" وعلى السرير "بيريزة" .. أين أنت يا
"سعد"؟ أين أنت أيها الكاذب الكبير؟

هدأت حركة الترام، دخل الليل فى سكون الفجر ومازال الصهد
يفح فى هذه الحجرة الكثيبة، لا يستطيع أن يضع جسده على السرير،
أين الهواء يا ناس؟ أليس فى هذه المدينة اللعينة نسمة واحدة من
الهواء؟

يعود إلى بلكونته الصغيرة المعلقة بين السماء والأرض،
لا لون لهذه البيوت العابسة، فقط هذا الغبار الذى رآه أول مرة فى
محطة مصر، كل ظل هو شبح لامرأة، كل قطة تموء صوت لأنثى شبة.

صوت أمه: "ما يضيعش الراجل إلا النسوان"

صوت أبيه: "مفيش مره تضيع راجل"

إننى ضائع هناك فى حارة "البكري"، سحرتنى فتاة جميلة لا قلب لها

- بكره تنسى "النسوان فى مصر هينسوك اسمك"

- ليتنى أصدقك يا "سعد" .. أنت لا تعرف ما بقلبي

أطلت من الشرق، شمس يوم قاهرى جديد، أيقظت بأظافرها هذا الكائن المتخشب، فى هذه البلكونة الصغيرة ذات السور الحديدى، والمعلقة بين السماء والأرض.

قال المسئول: المدينة مكتملة، لماذا لم تتقدم فى الميعاد؟

ثمانية عشر عاما وأنت تجهزنى لهذا اليوم، ولم تعرف يا أبى أن للمدينة الجامعية ميعادا للتقديم.

مالك والمدينة الجامعية، قلت: سأرسله للجامعة وهأنت قد أرسلتنى، بحقيبتى القديمة وعشرة الجنيهات التى لم تعد بعد عشرة جنيهات، أنت لا تعرف الفرق بين أن أسكن فى الجنة وبين أن أتشرد وحيدا فى مدينة مخيفة مثل القاهرة، وكيف لك أن تعرف ولم يسبقنى من أبناء الحارة سوى ابنة المخبر التى يتباهى بها فى كل مناسبة وفى كل غير مناسبة.

- الجامعة "مش بعض" وليست مفتوحة لكل من هب ودب

. آه يا ابن الكلب أنت لا تعرف - وربما تعرف - لماذا لا أستطيع أن
أرد عليك، بالأمس فقط كان يتذلل أن تذاكر معي "شريفة" .. لم تدفع
الرسوم .. فلم تتسلم الكتب المدرسية
قال "عم محمود" الحلاق: الله يكون في عون أم البنات .. كيف
تتحمل هذا المخلوق البارد .. " قالوا مين أبرد من الحلاق قالوا اللي
يخلق ولا يدفعش " .. وياريت لسانه حلو .. ياترى بنته اللي في مصر
راميه بلاها على مين ؟

قال الكابتن "فرج": أعوذ بالله فقر وعنطرة
رجل قصير بهذا الختم على قفاه وهذا الوشم الأخضر على جانبي
رأسه المستدير بلا رقبة، على هذين الكتفين الضيقتين.
لا يتذكر أحد متى رآه أول مرة

يقول "أبو عوض" البقال: ربما أتى مع الفيضان إلى البحر المالح
يقول الكابتن "فرج": يجيء الصعيدي على بلاص مش أو على
بلاص عسل، وهذا جاء على بلاص خره.

يرد "أبو عوض": من قال لك إنه صعيدي، الصعايدة "رجاله"، لو كان
منهم لعرفوه وظهر له أهل وعشيرة .. هذا رجل مقطوع من شجرة شوك
يقول الحلاق: "يمكن عامل عملة مش ولا بد وأهله متبريين منه"
يقف لحظات فوق الحجر الأبيض الكبير، الذي يملأ المسافة، بين

عتبة "المنذرة" ولحم الشارع الحي، يخرج دراجته السوداء الكبيرة،
يغلق الباب الخشبي وراءه، ويسير على أرضية الحارة البازلتية السوداء،
حتى عندما يصل إلى شارع "أسوان" العريض، يستمر في السير على
الإسفلت، لا يركب دراجته إلا بعد أن يبتعد عن العيون.. لا يحب
أحدا.. ولم أر واحدا يحبه.

مدينة السعادة

ثلاثة أيام كبيسة وأنا أحرث المنطقة المحيطة بالجامعة، "بين السرايات"، "عزبة أبو قتاتة"، ليس ارتفاع الإيجار فقط، ببساطة لا أرتاح لهذه الأماكن المزدحمة، ثم إن مستوى الأماكن المعروضة أقل دائما من قيمة الإيجار، وأنا أريد مكانا أرتاح فيه وبثمن مناسب.

أجلس في حديقة "الأورمان" تحت شجرة من تلك الأشجار الجميلة الغريبة، أمر الملك بإحضارها من أقطار الأرض لهذه الحديقة الرائعة، أكيد لم يكن من أهدافه أن تكون موثلا لهذا المخلوق الفقير القادم من أقصى شمال مصر، يستظل من الشمس الحارقة وفي يده رغيف الفول، كل لحظة ترقب وكل موقف مفاجأة وكل قرش أصرفه استنزاف يجب أن يكون في أضيق الحدود.

في "مدينة السعادة" "بإمبابة"، أخذ الرجل نفسا طويلا وقال: خذ لقمة يا بنى، أكيد لم تأكل منذ الصباح

- أشكرك أكلت منذ قليل

- "أنت بخيل والا إيه" أنا لا يسكن عندى بخيل يا "سهير" هاتى القلة "لأخوك"

من يراه الآن لا يراه منذ قليل وهو يساومنى على الإيجار

- ستة جنيهات كتير يا حاج

- إنها ثلاث غرف، وأنت تقول معك زميلان

وافق الرجل أخيرا على أربعة جنيهات ونصف.

من يجد مكانا مناسباً يعمل حساب الآخر.. قال عم "مسعد" وهو

يفادر قهوة "الجعافرة" ممسكا بيد ابنه "أحمد"،

قابلتهما بعد ذلك فى عمارة "عمر الجيزاوي" أقصد سجن "عمر

الجزاوي"،

زنازين ملتصقة بجوار بعضها متر فى متر والليلة "بريزة" والدفع

مقدما،

مكان للطوارئ أرخص كثيرا من "لوكاندة السعادة"، صحيح

طارت "البريزة" لكن الحمد لله ها أنا ذا فى بيت حقيقى وناس طيبين.

قال عم "مسعد" بعد أن عدل نظارته السميكة فوق عينيه: المكان

مناسب والله أنت "جدع" يا أبو عرب، كيف وصلت إلى هذا المكان؟

- أنت لا تعرف يا عم "مسعد"، إنها رحلة طويلة، طويلة جدا.

يذكرنى مولد "إسماعيل الإمبابي" "بحارة العيد" فى "بور سعيد"،

نفس المراجيح، نفس الألعاب تقريبا، الروح فقط هى المختلفة،

ربما الاختلاف الكبير فى الناس، فلاحون بسطاء وهادئون، لفرحهم وبهجتهم حدود، ليسوا مثلنا الحواجز مرفوعة ولا حدّ لعواطفنا، يعجبون بفتوتنا وشكلنا المبهج الغريب، يندهشون من جرأتنا واقتحامنا وكسرنا للمألوف، فيهم عبق الأرض وثباتها، وفينا خفة الماء ونزق البحر.

لا توجد فى مولد "الإمبابي" عربات اليد المظلمة بملاءات السرير، حولها الدكك الخشبية، كل طفل أمامه طبق "البكلويز" الأبيض الساخن ورائحته المختلطة برائحة الثوم، وعلى رأس العربة وإبور الجاز يزمر تحت الإناء الفواح.

.. لا يوجد "البكلويز" الأبيض إلا فى البحيرة، مثل بندقة كبيرة، "صدفته" مضلعة تشبه "الصدفة" المرسومة على "الاسترنات" العملاقة التى تمخر القناة وفى جوفها بترول العرب المسروق.

"البكلويز" الأحمر والأسود فى "القنال الداخلى"، أقرب إلى شكل اللوزة الكبيرة، "صدفته" رخامية ملساء.

لا أحب الاحتباس مع "الحاوي" أعلم أنه دجال، ولم يدهشنى أيضا "بريللو" الإيطالى و دورانه "بالموتوسيكل" فى برميله الخشبي الكبير، أحس أننى أستطيع أن أفعل أكثر منه حتى "بموتوسيكل" "حواتر" "الماتشليز" الثقيل.

حينما ترانا يرتفع صوتها: "قرب قرب .. فتح عينك تاكل ملبن"
هذه الفجرية النحيلة بردائها المزركش، وعينيها الكحيلتين،
أقوم بالاستعراض المجاني، أقبض على البندقية بيد واحدة،
وأصوب من أوضاع صعبة، ثم أختتم استعراضى بأن أضع تعريفة
مخرومة أمام البمبة،
مع صوت الفرقة يقفز "البلاسي" فى الهواء فرحا كطفل، وقد
فتح عينيه الصغيرتين خلف نظارته السمكة، لم أر استدارة عينيه
الصغيرتين إلا فى مولد "إسماعيل الإمبابي".
يرتفع صوتها مع كل فرقة ببهجة ذات معنى، وقد وضعت أصابعها
الرفيعة فوق ذراعى "قرب قرب تاكل ملبن قرب قرب تاكل ملبن".
عندما أصبح وحدى آخر الليل، تشعلنى لمسة أصابعها الرفيعة،
ويوقظ كل شياطينى صوتها الأنثوى المبحوح "قرب قرب .. فتح
عينك تاكل ملبن"، وأظل أتقلب فى فراشى حتى الصباح .

أبله أزهار

منذ متى سرى حبها فى دمي ؟ لا أستطيع أن أحدد البداية..
"رشاد أفندي"، مدرسة السلام الابتدائية.. هذا المدير السمين،
يقول فى كل مرة: جئت فى وقتك يا "محمد"، غدا عيد ميلاد
زوجتي،

ترفع زوجته البيضاء السمينة وجهها عن إبرة "التريكو"، تنظر إلى
زوجها الكذاب ثم تعود إلى الصوف مرة أخرى، تجلس صامته فى أقصى
يسار المكتب، لم تنتبه إلى وجودنا إلا فى لحظة الكلام عنها .
يجهز أبى "التورته" ذات الأدوار، علب البندق واللوز والجوز المغطى
بطبقة من الشيكولاتة، "الفنضان" الأحمر، والأخضر، والأصفر،
والبرتقالى.

يقول "رشاد أفندي": لا تنسَ "الشو" يا "محمد"
لا يصنع أحد "الشو" كما يصنع أبى،
يقول: السرفى "الكريمة" يا بنى

حول الشمعة البيضاء الكبيرة، يرسم أبى الحروف الإنجليزية
Happy BirtH Day يرسمها بالفنضان الأصفر المتوهج .

ظل الخواجة "جورجي" يكتب الأحرف "الإنجليزية" فوق
"التورته"، حتى اكتشف براءة أبى فى رسمها .

يقول أبى: عيب ألاّ تنهى عملك وحدك وبيدك يا بنى
بسبب حلويات أبى، أدخلنى "رشاد أفندي" مدرسته قبل السن
القانونية،

حفظت المناهج حتى مللت من التكرار، المدرسات يتسامرن وأنا
أقرأ الدرس، أقول من رأسى، لم أعد أنظر إلى الورق، أقول وعقلى مع
المدرسات، يحكين "نكات خارجة" ويضحكن، سمعت من أفواههن
ألفاظا قبيحة لم أفهم معناها فى وقتها، تقول أبله "أزهار" للتلاميذ بعد
أن تجلسنى على حجرها وتقبلنى فى شفتى: أريد منكم أن تقرأوا كما
يقرأ العربى

بيتها قريب من بيتنا، أجمع الدفاتر من التلاميذ، أجلس فى
البلكونة الخشبية الواسعة، أمامى طبق الحلوى وكوب العصير، أنظر
إلى الشارع ثم تعود عينى إلى داخل البيت أراها وهى تتحرك أو تجلس
إلى مكتبها تنظر فى دفاترنا،

رائعة الجمال، سمراء، شعرها كستنائى، يترجرج جسدها داخل

القميص البصلي بلا أكمام ومفتوح الصدر، ذراعان متناغمان، وصدر متفجر... تضبطني متلبسا بالنظر إلى لحمها المضيء تحت القماش الشفاف، يحمر وجهي، أنظر إلى الأرض في خجل وارتيابك، تضحك في خبث وتقوم، تجلسني على حجرها وتقبلني في فمي، ضربات خفيفة سريعة متنقلة، ثم تطبق بشفتيها الكبيرتين الساخنتين، لا تتركني إلا بعد أن أتلهب وأذوق شهدها.

مع أبله "أزهار" ترعرعت أحاسيسي الأولى بالنساء، حتى عندما اكتمل إدراكي كانت أبله "أزهار" هي النموذج الأساس. يضحك عمى ونحن في السينما عندما أقول: "مارلين مونرو" تشبه أبله "أزهار"

- هذه شقراء و"أزهار" سمراء أين وجه الشبه يا فالح؟
أخجل أن أقول له: نفس الشفتين الساخنتين الممتلئتين بالدم، نفس التقاطيع الجميلة المفتحة، وتسريحة الشعر، وهذه الرجرجة وهي تسير، ونظرة العين الناعسة التي تزلزل الروح، والصوت الذي يشبه الفحيح.

ربما لا تدرك "أزهار" أو ربما كانت تدرك ما تفعله بي في هذه السن المبكرة، تنظر إلى الفصل وتضحك بلا سبب، يحمر وجهي، أغضى في خجل فتزداد ضحكا، وظل هذا سرنا فترة طويلة.

"مسكين والد حسان" .. تسيل دموعى وأنا أراه ينزلق على قشرة الموز وتنكسر ساقه، أدعو الله فى سرى أن يحفظ ساق أبى، "والولد الطماع" أدخل يده فى "برطمان" الحلوى ولم يستطع أن يخرجها، و"القرد وبائع الطرابيش"، هذه القروء الشياطين المولعة بالتقليد.

قلت: أريد أن اجلس جنب "شريفة"

تقول أبله أزهار: أنت هنا فى الأمام، الألفة لا يجلس إلا فى الأمام يجلس "الدكتور" جنب "شريفة" ولد طويل نحيف برموش مسلحة ونظرات شاردة، "بربوره" فى طرف أنفه على الدوام.

تقول أبله "أزهار": "دكتور مرة واحدة، جتك نيلة، قرفتني من الدكاترة، كان لازم يسموك أبو "بربور"

أحسد "الدكتور"، لا أريد أن أكون "ألفة" الفصل، أريد فقط أن أجلس بجوار "شريفة" .. تسلت إلى شغاف قلبى هى وهذا العلم الأخضر ذو الهلال والنجوم، ورائحة الكتب الجديدة، وأقلام الرصاص، والممحة الكبيرة المربعة، وعلبة الألوان، ولوح الإردواز، أتسلمها قبل بداية العام، أضعها فى حقيبتي القماش التى تشبه المخلاة الصغيرة، فى البيت أفردتها على سريرى وأظل أتشممها طوال اليوم، أقلب صفحاتها الصقيلة الملتصقة، أتشمم حبر الطباعة الطازج، أدخل عالم الخيال الذى أنتظره من العام للعام .

شريعة

كانت الابتدائية سنوات أربع، على بنحتي، رأيت الثورة أن تجعلها سنوات ست عجاف، كرهت نفسي من الملل، ومن تكرار المناهج التافهة، ولولا حبي الشديد للكتب ورائحتها "ولشريعة" ولأبي، لفررت من المدرسة.

هل كان تفوقى من أجل شريعة؟
لا أستطيع أن أجزم، ففي هذا الوقت المبكر لم تكن حتى تنظر إلي، فأنا الأصغر والأكثر انطواء.

تمتعى بالحصانة بوصفى "ألفى" الفصل، وهذه الرعاية الخاصة من "رشاد أفندي" والمدرسات.. فى طابور الصباح يربت على رأسى ويقول: لا تنس أن تسلم على أبيك.. كل ذلك جعل بينى وبين بقية التلاميذ حائطا وهميا، زاده ارتفاعا خجلى وشرودي، فسرهما التلاميذ غرورا وتعاليا.

فى "الفسحة" تلعب "شريعة" مع الأطفال، دائما أنا خارج دائرة

نظرها ودائما هي في مركز رؤيتي، ومع الزمن بعدت أنا واقتربت هي حتى تلبستني ..

يرتدى "توفيق" بائع الحلوى ملابس الكشافة، "الشورت الكاكي" والمنديل الأحمر حول رقبته، وعلى رأسه "الباريه الصغير"، لا يكفي لحجب شعرة الغزير البنى اللامع، وجهه قمحى مضىء، وعيناه تشعان بالثقة والابداع .

قبل دخولنا في الصباح نلتف حوله في دائرة كبيرة، يرسم بالطباشير الملون على الأرض لوحات رائعة، مثل التي نراها في مجلات الأطفال، قصصا مصورة نتابعها يوما بعد يوم، قبل دخولنا "الحوش" بدقائق ينتهى من الرسم، يخرج مزماره يبتعد قليلا حتى لا تدهس أقدامنا الصغيرة لوحته الجميلة، نتجمع حوله في انتظار لعبة "البخت"، قراطيس الحلوى المدببة مثل رأس الحربة والمغلّفة في ورق أبيض، مغروس في منتصفها أعواد الخشب الرفيعة، في كل عود، الخيط المربوط بإحكام، ندفع المليم ونشد الخيط، يقفز المحظوظون فرحا عندما تتلأأ العملة المعدنية البيضاء داخل المخروط السكرى الشفاف، تعريفة مخرومة، أحيانا قرش أبيض مخروم .

ارتبكت خطاى وأنا أتقدم نحو "شريفة" بالمخروط السحري، يشع من داخله القرش الأبيض المخروم، وقفت قليلا تنظر إلى صامته، ثم

مدت يدها بسرعة، وضعت الحلوى في فمها ومضت تقفز مبتهجة
نحو شلتها الصغيرة، وأنا واقف في مكاني، جامد مثل تمثال بشري
من الحجر.

عبد الحلیم شحاتة

قال "أحمد شحاتة" وهو يضع الثلج على رأسى: ستقتل نفسك يا "أهبل" والله هى وأخواتها السبع لا يساوين طرف إصبعك الصغير، ألم يحك لك أخى "عبد الحلیم" ؟

يعرف "عبد الحلیم" أسرار بنات شارعنا بنتا بنتا، يأتى إلى "إمبابة" فى سيارة الوزارة السوداء الكبيرة ذات الستائر، يتحدث إلى السائق ثم إلى "عبد التواب" الذى يقف مزهوا ينظر إلى جيرانه ولسان حاله يقول: هؤلاء سكان بيتى هل يسكن فى بيوتكم مثل سكانى ؟

سمع "عبد الحلیم" وزير الأوقاف فى الراديو يقول: أنا مدين بما أنا فيه لأستاذى ومثلى الأعلى الشيخ "شحاتة"

فى اليوم التالى كان "عبد الحلیم" فى مكتبه، أخذ العزاء فى أبيه وأخذ أيضا لنفسه وظيفة كبيرة فى مكتب وزير "السد العالى"، ولأخيه "أحمد" وظيفة مماثلة فى الإدارة العامة لشركة "المقاولون العرب" ..

ودخل أخوه الأصغر الكلية الحربية.

هذا البرنامج الإذاعي، "ليلة القدر" لآل الشيخ "شحاتة"،
لم يتصور أحد وقتها أنه من الممكن أن يخرج من ظهر العالم أكثر
من فاسد.

فى القاهرة كلما رأى "عبد الحليم" فتاة جميلة تزوجها.
يقول وهو يضحك: فتيات حارة البكرى أفسدننى لم تعد تملأ
عينى امرأة بعدهن لم احترم "عبد الحليم" أبدا، كان يفضح البنات
بشكل تأباه مروءة الرجل.

تنبهر الفتاه بشكله الوسيم ومركزه المرموق وسيارته السوداء
الكبيرة وهذه النظرة الصادقة من عينيه الواسعتين، ما أسرع تغرغرهما
بالدمع وهو يضحك، فما بالك فى المواقف "الدراما تيكية"، حسب
تعبيره .

يتلذذ عبد الحليم وهو يقص علينا قصته، من النظرة الأولى وحتى
وقوع الفتاة فى براثن شبكته العنكبوتية،
يقول فى ثقة: لا توجد على الأرض امرأة تستعصى على "عبد
الحليم"

أتعجب من قدره الله الذى وضع كل هذا الشر فى هذا الوجه
الملائكى،

بعد قليل تراه على حقيقته، فيطلقها إن سارت الأمور بلا مشاكل

وكانت "بنت ناس"، أحياناً لا يخلو الأمر من قضايا ومطالبات مالية لم يدفعها أبداً.. أصبح خبيراً فى مثل هذه القضايا.

يقول "أحمد شحاتة": "عبد الحلیم" غاوى مشاكل "النسوان ملقحة على قفا من يشيل يعنى لازم الجواز؟"

يقول "عبد الحلیم": احرص يا "زناوى" والله خسارة فيك اسم الشيخ "شحاتة"

مجنون شريفة

أخيرا جاءت القصيدة، قرأتها على "شحاتة" و"البلاسي"
و"عرنوس"

إذا قرأت الشعر وضحك "شحاتة" أضربة بأقرب شيء إلى يدي،
قصيدة طويلة قلت في آخرها:

سأحارب نفسي في نفسي	ويطارد نومى أحلامه
وأمزق قلبى يا قلبى	وأكسّر فى الصدر سهامه
قد أصبح إنسانا آخر	والدنيا قد تعرف قدرى
قد أصبح شيئا مذكورا	لا تسخر منى من يدرى؟
فلعلى إن حان خلاصى	وأثنى قدرى يا قدرى
أستلّ غرامك من قلبى	أطعمه وأمزق صدرى
فغرامى مطرود يشقى	وغرامك يحفظه قلبى
وذنوب الناس خطاياهم	وذنوبى قلب فى جنبى

قال "عرنوس": الله يا "أبو عرب" قصيدة جميلة

وابتسم "البلاسي" ولم يعلق كعادته، قام "شحاتة" قبل نهاية
القصيدة وهو يضع يده على فمه، أغلق حجرتة بالمفتاح، وجاء صوته
من بعيد، لازم تروح لدكتور، أكيد نهايتك مثل مجنون "ليلي"،
تسير عريانا في الشارع والعيال "يحدفوك" بالطوب ويقولون مجنون
"شريفة"، مجنون "شريفة".

في كل مرة أندم على قراءة شعري أمام "شحاتة"،
أقول: صحيح.. لا تلق بالدر أمام "الخنازير"
وفي كل مرة أيضا لا أستطيع أن أصبر على القصيدة، أنادي عم
"مسعد البلاسي" بالليل أو بالنهار، يستمع ويتذوق ويقول رأيي الذكي،
كسر غروري هذا الرجل العجوز بشعره الشعبي، أول مرة أتعرف
على عبقرية "ابن عروس" وغيره من فم هذا الرجل الحفاظة .
أصل الحكاية ريال بعشرين لأحلف ولا تحلفوني
عمدة بلدكم قليل دين جاب الغفر كتفوني

مين داداك داديه واجعل عيالك عبيده
ومين عاداك عاديه دي روحك مش ف ايده

ضربت كفى بكفى ماعاد باليد حيلة
أم الفلافل تكفى اللي قروشيه قليلة

تسعه ذاكرته دائما بالشعر المناسب لكل موقف
فى هذه الليلة قال:

عقوبها يدبح الطير وبوزها بوز الحدادي
واللى أناها مشافش خير يا طول شماتة الأعادي
وقال أيضا:

من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه
ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه
حتى أنت يا عم "مسعد" !!

ثم يقوم وهو يتشاءب: أسيبك تنام بكرة عندك كلية
فى الليل أرى "عبد الحليم" مرتديا الجلباب الصعيدي وله شنب
كبير، يضربنى بالنبوت ويقول: أنا "ابن عروس" قم وبارزنى رجلا
لرجل، أقوم من نومى مفزوعا، وأظل مستيقظا حتى الصباح .

ستدخل قل أبيب

يستند إلى شكاثر الرمل التى تسد فتحات الحوض العائم حتى
منتصفها تقريبا، وضع سلاحه فى وضع الاستعداد، ينتظر هدفا لا
يجىء، يمسح عن عينيه بخار اليود المملح، وذرات الرمل والدموع،
وجهه محمص وجلده ساخن ومتفحم،

منذ أيام قليلة، كان يقف على سطوح بيت "عبد التواب" فى
"إمبابة" ومعه "البلاسي" يراجعان الدروس، فالأيام امتحانات.. أول
امتحانات لهما فى الجامعة، وكان معهما أيضا "عرنوس" و"شحاتة"..
"عرنوس" بالفانلة يتدرب بكوز الإسمنت، مستعرضا جسده الجميل،
و"شحاتة" وحده يعاكس فتيات الشارع، العجيب أننا لم نكن نعرف
أن هذا المكان الجميل الشبيه ببيوتنا يملكه عمال "الترسانة البحرية"..
لم نتخيل أنه يمكن أن تكون فى القاهرة "ترسانة بحرية"، أسسها
"محمد علي" لبناء أسطول غزا به العالم، الأوروبيون البرابرة تكالبوا
عليه، حرمونا من فرصة نادرة لقيادة الكون، هو أيضا أخطأ فى موقف

لا يحتمل الخطأ، ليته سمع كلام ابنه إبراهيم.. خشى "محمد علي" أن يذكر التاريخ أنه أسقط "الخلافة الإسلامية"، وهي ساقطة ساقطة، ألسنا أولى من الغزاة الكفرة، "وكان جحا أولى بلحم طوره" .. أكلوا الثور ثم ثنوا بالنعاج، صوت عبد الوهاب في "الراديو الترانزستور"، بعده بقليل صوت "أحمد سعيد" يجلجل أسقطنا خمسين طائرة إسرائيلية، قواتنا على مشارف "تل أبيب" .. قفز "عرنوس" في الهواء، كاد يسقط من فوق السطوح لولا لطف الله .

تركنا الكتب والامتحانات، وأتينا إلى "بور سعيد"، الامتحان ينتظر ولكن دخول "تل أبيب" حدث لا يتكرر، قضينا الليل في القطار، في معسكر "الجللاء" في "الإسماعيلية"، الكشافات تملأ السماء والقنابل تفرق، أتى الصباح وتحرك القطار بالجرحى إلى "بور سعيد"، كل شيء يهون في سبيل تحرير فلسطين .

تجمع الطلبة الجامعيون في "المعهد العالي التجاري" أمام حديقة "سعد زغلول"، في الليل أحضروا صناديق الأسلحة، بنادق نصف آلية جديدة بشحمها عليها التاج الملكي، مكتوب تحته "الحرس الملكي"، على ضوء الشموع غسلنا السلاح بالجاز وجففناه بملابسنا وانتظرنا، يوم اثنان ثلاثة ثم أتنا الأيام الحزينة .

قلنا: نريد أن نحارب .

أخذونا إلى "ترعة الإسماعيلية"، أصابها العدو بقنابله ولا بد من رأب الصدع قبل الصباح، حتى لا يشعر الناس بقلّة ماء الشرب فيصابوا بالذعر.

تسلّخت أيدينا من الطين وشكائر الرمل، عدنا وقد هدنا الإعياء الكامل،

فهمنا الآن لماذا ثار "عرابي" على السخرة في الجيش... وانتظرنا .
قالوا: سلموا أسلحتكم

رفضنا

قال الضابط: لو كنتم جنودا نظاميين لضربناكم بالنار، الرئيس بنفسه يتابع أخباركم، سنلحقكم بفرق التدريب العسكري حتى نجهزكم للقتال، وبعدها لنا معكم شأن آخر

في "نادى المعارف" بجوار "الثانوية العسكرية" تدريبنا على السقطة الأمامية والسقطة الجانبية والالتحام، والقتال بالسلاح الأبيض، وفرقة المتفجرات، والحرب الكيماوية، والصاعقة والأر بي جي، يدرّبنا عسكريون متخصصون على أعلى مستوى من الضابط إلى أقل رتبة عسكرية، لماذا لم يشترك هؤلاء في الحرب ؟

بعد أن أعطونا بنادق آلية روسية جديدة، وقف المسئول الكبير يخطب فينا : إنه واجب قومي كبير أن تحملوا شرف حراسة الترسانة

البحرية.. الترسانة البحرية " تانى " يبدو أن كل مصائب مصر فى
الترسانة البحرية

- إنكم تحرسون أكثر من مائتى مليون جنيه من عرق الشعب
المصرى ودمه، أوشكت أن أقول له: إننا لم نترك الجامعة لنحرس مائتى
مليون جنيه من عرق الشعب المصرى ودمه، جئنا لنقاتل وندخل تل
أبيب مع الداخلين، لقد كاد "عرنوس" يموت وهو يصيح سندخل "تل
أبيب" سندخل "تل أبيب" .



ماء ميت

تقع الترسانة البحرية فى مدخل القناة، على ضفتها الشرقية، أول ما تراه السفينة القادمة من البحر، أوناش عملاقة ثابتة وأوناش صغيرة متحركة على عجالات ضخمة قياسا إلى حجمها، فى مقدمها شوكتان من الصلب كسنى فيل وعنابر كانت مثل خلية النحل، هى الآن ملاعب للريح والصمت، فقط صوت الماء الذى يرتطم أسفل هذا الحوض العائم فى رتابة مملة تدفع إلى الجنون، حتى الماء لم يعد هو الماء، أصبح نظيفا جدا ورائقا على غير العادة، خال من الحياة، جثة مائية ممددة، هو نفسه لم يعد الشخص الذى كان قبل الخامس من يونيو، اهتزت كل الثوابت.. صباحا من نومه فجأة وجد نفسه شخصا آخر، أفاق على الحقيقة المفزعة، فى من يثق؟ صوت "أحمد سعيد" يدوى فى رأسه كابوس فظيع، ليس له ملاذ الآن سوى هذه البندقية الآلية، هل تكفى حجم الخوف والغضب الذى يغلى فى عروقه؟ كيف خدرونا كل هذا الوقت؟ ممن ينتقم وبمن يبدأ؟

تطفو "الشمندورة" بكاملها فوق سطح الماء، مستسلمة كزورق

فقد مجدافيه، حلقتها فارغة من الحبل الضخم الطويل وهو يشدها إلى الماء.. يمتد بينها وبين السفينة المربوطة، وتظل تصارعه طوال الوقت .. وعمال الرباط الأشداء، يبدون فوقها من بعيد مثل دمي صغيرة مشاغبة، وفلايك "البمبوتية" الصغيرة ذات المجدافين، وبضائعهم العجيبة، وكلامهم الذى لا يشبه الكلام، مزيج من كل اللغات وأياديهم التى تتكلم قبل ألسنتهم .. فقط الفراغ وهذه النوارس التى تحوم فى تكاسل مريب.

أول طلقة ثم تتوالى الطلقات.. إنهم الزملاء يقتلون الوقت بالرصاص، يطلقون على تلك النوارس المسكينة، لم يشترك أبدا فى هذا القتل الرخيص، هاجسه الذى يطارده، هو أن يخالف الأوامر، ويطلق على تلك الطائرات الرمادية الشوهاء .

تأتى من الجنوب، تتسحب على سطح الماء وبطول القناة، ثم تميل فجأة على جانبها الأيمن متجهة إلى الشرق .

فعلها عمه فى "ستة وخمسين" ولم يسقط طائرة واحدة، ولكنه فعلها، هم أيضا أحرقوا "المناخ" كله ولم يصلوا إليه، إنها قصته التى لا يزال يحيا بها، ولكنها الترسانة البحرية أكثر من مائتى مليون جنيه من عرق الشعب المصرى ودمه .

قال الضابط وهو ينظر فى انكسار إلى الطائرة الرمادية المتسحبة

على سطح الماء، وكأنه يقرأ هواجسى: البندقية لا تسقط الطائرة.. لا
تسقط الطائرة إلا الطائرة أو الصاروخ.
كيف لهذه الكلاب تلغو فى مائنا.. لا بد من وسيلة.

سأخبر جمال عبد الناصر

إذا رأيت ضفدعا بشريا، أقتله قبل أن يستريح، فهو مدرب تدريباً
عالياً على القتل السريع.. قنابل الأعماق مضادة للضفادع البشرية.
ألقينا قنابل كثيرة ولم نر ضفدعا بشريا واحداً، فقط هذه المجزرة
البشعة للأسماك، يأخذ الزملاء بعضها يشونه على الخطب ويأكلون.
انتبه للأمر ضابط سكندري كبير، يجمعها ويضعها في صناديق
خشبية مع الثلج ويسافر بها، مع الوقت تأملت لمشهد السمك المختنق،
وغضبت من تصرفه الأناني.

قلت: سأخبر "جمال عبد الناصر".. لا أدري كيف جرت
الكلمات على لساني، اضفر وجه الضابط.. أصبح استخدماً للقنابل
وقت الحاجة وفيما خصصت له.

في وقت الراحة خلعت ملابسني، ألقيت بنفسي في الماء، سبحت
حتى وصلت إلى اللسان الصخري الرفيع، الممتد في اتجاه الشمال نحو
البحر، أسير بحذر فوق الصخور الملساء، أخرجت من فمي الخيط

الذى ربطت فى طرفه ما يشبه السنارة، ألقيته بين الصخور المغمورة بالماء.. كما توقعت تماما المكان مليء بهذه السمكة السوداء ذات الرأس البشع، تبتلع أى شىء يلمع، أضع السمكة فى الكيس المربوط فى وسطى ثم ألقى الخيط فى الماء، وجدت الضابط الشاب بجانبى

- كيف تصطاد بلا طعم؟

- سمكة غبية ولكنها لذيذة تعيش فقط فى جحورها بين الصخور

ولا تغادرها أبدا

- ألا تفكر فى الضفدع البشرى وأنت فى هذا المكان المقطوع؟

- ليته يأتى فأقتله وأستريح، أو يقتلنى فأستريح، الموت أفضل من

هذا الانتظار السخيف

- إنها الحرب والأكثر تحملا هو الذى يفوز فى النهاية، هيا

لنجرب طعم هذا السمك الأسود، هل أنت متأكد أنه غير سام ولن

يقتلنا؟

كان صباحا مشرقا قال الضابط: سنخرج فى مهمة قتالية..

جنوب "بورفواد" بعد الملاحات، قريبا من "رأس العش"، حفرنا

الخنادق الخلفية، أمامنا "حفر برميلية" فيها ضباط وجنود من فرقة

"الأرب ج"، انتظروا حتى دخل القول الإسرائيلى إلى المدق الوحيد

المؤدى إلى المدينة، فى وقت واحد انفجرت الدبابة الأولى والدبابة

الأخيرة وبدأت المتعة الحقيقية، أحلى صوت فى الدنيا صوت ارتطام
الصاروخ بالدبابة الإسرائيلية، إنهم يتساقطون كالذباب، من يخرج
عن المدق ينغرس فى الأرض المالحة كذبابة تتخبط فى طبق من العسل،
وقعوا فى المصيدة، ولم يعاودوا المحاولة بعدها أبدا .

حسين الضبيع

كنت أوزع وقتى بين الصيد وبين الحراسة، التى لم أقتنع بها أبدا ومع ذلك أنفذها بأمانة، وبين النوم فى مكان حراستى، على لوح خشبى وجدته فوق شوكتى أحد "الأوناش" الصغيرة، أسند اللوح الخشبى بجوار فتحة الحوض العائم وأبدأ التدريب بقذف السونكى، الضفدع البشرى يجيد القتل بالسونكى، زدت المسافة مع الوقت، وجدت فى الأمر تسلية كبيرة، يطير النصل فى الهواء محدثا هذه الرفة الخفيفة، وبعد أن يلف عدة لفات ينغرس فى الخشب بصوت مكتوم، اصطدم النصل عرضيا بصفحة اللوح الخشبى، قفز إلى الماء وأنا وراءه، المسافة ثابتة بينى وبين هذا النصل اللامع الذى يقودنى إلى الموت.

صوت أبى: اعمل حساب الصعود

تركت النصل اللامع ولم يبق من نفسى إلا القليل.

صوت أبى: لا تغلق عينيك فى الماء

الماء فوقى قسمان، قسم شفاف كبلور يترجرج، تنحل فيه الشمس

خيوطا قزحية، وقسم معتم صفيق، عدلت وضعى فى اتجاه الضوء، واحتاج ذلك منى إلى مزيد من النفس، خلا صدرى تماما من الهواء، الثوانى دهور، والموت قاب قوسين أو هو أدنى، وبلغت الروح الحلقوم

قال الغواص العجوز لا يفعل ما فعلت إلا مجنون، ولا ينجو مما فعلت سوى محظوظ قلبه بارد، لو خفت لهلكت، لا أرض تحت هذا الحوض العائم، فقط حائطان اسمنتيان يستمران فى الميل، يلتقيان على عمق أكثر من خمسين مترا، حتى نحن وببدلة الغوص الحديدية الثقيلة ذات الخرطوم، لا نستطيع أن نتحمل هذا العامود الثقيل من الماء .

- أشكرك يا أبى صوتك أنقذ حياتى

فعلها "حسين الضبع" زين شباب كلية الآداب، مات غرقا تحت عوامة الجامعة أمام فندق "شيراتون" الذى كان وقتها تحت التأسيس.. رأيت "الضبع" أول مرة فى معسكر "الجوالة"، كان معنا "توفيق عبد العظيم" و"حمدى كيرة" و"سامى صلاح" و"محمد الشهاوي" و"شوقي" و"محمد حاكم" و"علاء حمروش" و"إبراهيم النمى" و"قاسم عبده قاسم" و"على" و"فاطمة".. أسماء كثيرة لشباب مثل سنابل القمح. يومها قال لى: قابلنى فى نادى تجديف الجامعة

ذهبت إلى هذه العوامة الخضراء الكبيرة أمام "شيراتون"
قلت له: هذه المركب لا تشبه المراكب الرفيعة المرسومة على
الأرفف بطول العوامة

قال: تركب "المدرسة" أولاً ثم "اليول" وبعد شهر تركب معنا
المراكب الرفيعة "أوت ريجر"

بضعة أيام وكنت بجانبه في المركب الرفيعة .

قلت له: من أين لك بهذا الجسد الجميل ؟

قال: إنه التجديف ولا شيء غير التجديف، الرياضة الوحيدة التي
تحرك كل عضلة في جسمك ولا تنس، القوة هي الأساس، والشكل
يأتى مع الوقت،

يتكلم عن التجديف كما يتكلم عن فتاة رائعة يعشقها.

يدرّبنا الكابتن "بسطامي" هذا النحيف خفيف الوزن "بارير" مصر،
مثل الجوكى فى سباق الخيل، به يفوز المركب أو يخسر السباق .

بعد تدريبات الإحماء على الأرض، ننزل للتسخين فى الماء، ندور
حول جزيرة المنيل فى مركب هى الأثقل من بين مراكب النادي، ثم
نلف حول الجزيرة الكبيرة من تحت كوبرى "إمبابة" فى الشمال بمركب
السباق الأساسية.

أرتدى ملابسى بعد الدش الساخن، أخرج من النادى بلا جسد،

أشعر أننى ريشة تطير فى الهواء.

فى إحدى المرات خرجت من النادى ركبت "تروल्ली" أربعة وأربعين الذهاب إلى "إمبابة"، بعد أن أخذ التروल्ली سرعته خطف الواقف إلى جوارى ساعتى وقفز من "التروल्ली" وأنا وراءه، لم يصدق عينيه عندما رآنى فوق كتفيه، مديده بالساعة واستمر يجرى وهو ينظر خلفه كالذى يرى عفريتاً.

ساعة أبى.. "تل" قديمة، ذات ميناء بيضاء باهتة، يفتحها أمامى ويقول ماكينة أصلية مثل "الأماز" ثم يغلق الغطاء الفضى الذى يبرق من الداخل فى دوائر صغيرة مثل النجوم.. لولا أنى أعلم مدى حب أبى لها لألقيتها فى النيل واسترحت، فى إحدى المرات سقطت منى وأنا أقف على "الأزأ" قبل النزول إلى المركب، سقطت بين الشقوق فرحت ساعتها قلت: "جاءت من عند الله"،

نزلت إلى المركب وما أن عدلت جسمى، حتى رأيته تتلأأ أمامى فوق "الفنطاس" الحديدى، الذى يحمل العوامة كلها، مددت يدى و أخذتها وأنا أضحك .

هذا "الفنطاس" الحديدى الكبير، مات تحته "حسين الضبع" زين شباب الكلية، فزنا يومها بسباق الجمهورية، هزمنا فريق الشرطة منافسنا التقليدي، كنا نضحك ونحن نرى الجنود عابسين يعرفون ماذا

ينتظرهم على يد الضباط، قفزنا إلى الماء ابتهاجاً بالنصر، خرجنا ولم
يخرج "حسين الضبع"، نخلنا النيل كله حتى كوبرى "إمبابة" القديم
ولم نجده .. وجدناه بعد ذلك عالقاً تحت هذا الفنتاس اللعين، بكى
معنا جنود "الأمن المركزى" حزنًا على الضبع، أيها الموت كيف تختار
فرائسك؟

رجب

لم نعد نطبق الاحتباس .. فى نوبة من نوبات هياجه قال "رجب"
للضابط: الرجال يموتون ولا يفرون من مواجهة الأعداء

هبط الصمت على الجميع، تحول الهواء إلى زجاج بارد.. سلم
الضابط سلاحه للرقيب وأمر "رجب" أن يفعل مثل ما فعل.. تضارب
الرجلان بالأيدى رغم ذهول الجميع، حوّمت الطائرات الإسرائيلية
على الموقع، فى لحظة عاد الضابط ضابطا.. أخذ سلاحه وأمر الجميع
بالانتشار، بعد الغارة بحث الرجلان عن بعضهما وتعانقا وسط الدموع.

هل ذاق أحد مرارة الانكسار مثلنا؟

هكذا "رجب" دائم الانفعال ومنفلت اللسان، رغم قلبه الأبيض،
وجسده الضخم..

لا يفهم معنى للانتظار، الأعداء فى سيناء وهو ما زال حيا، وواجب
الأحياء أن يثاروا للموتى .

وجدوها فرصة للسيطرة علينا، الأكثر التزاما وتفوقا فى التدريب

يخرج إلى سيناء فى فرق صغيرة، نرتدى ملابس الصيادين، نبحر معهم فى مراكبهم الصغيرة، نزل إلى الشاطئ نحضر أسلحة القتلى ومتعلقاتهم الشخصية، بعد أن نقوم بدفنهم، لم نتألم من رؤية الموتى، رؤية الأحياء أشد قسوة وعذابا، شباب مصر، فلذات كبدها، جلود مسلحة، أقدام متورمة تنز بالقروح، وعيون ذاهلة منطفئة .

- تركونا فى العراء.. الأوامر متضاربة حتى عندما تأكد أمر الانسحاب لم نصدق.. لماذا إذن عبرنا بهذا العدد الكبير؟

- إنها جريمة، خيانة عظمى، من يدفع الثمن؟

- الطيارون اليهود يلعبون مع أبنائنا لعبة القط والفأر، يقتلونهم دهسا ورعبا، وكذلك تفعل دباباتهم

- حتى فى ظل هذا التفوق الكاسح لم يقابلونا رجالا لرجل

- إننا لم نحارب لقد وقعنا فى شرك كبير

- لا يمكن أن تغفر مصر لمن تسبب فى هذا

.. كنا نغلى بالرغبة فى الثأر

- لا تتحرر الأوطان بالرغبات وإنما بالتدريب الجيد والصبر، ثم إنه

ثأرنا نحن قبل أن يكون ثأر أى مصرى آخر، وأقسم بالله العظيم إننا

قادرون عليه.. قال الضابط وهو يسير خلفى حذرا فوق الصخور الزلقة

- بعد كل الذى رأينا فى سيناء هل تنتظر من أحد أن يصدقك؟

قبض على يدى بقوة قال: أنت أولى أن تصدقنى، يجب أن تصدقنى.. ثم صمت والتفت إلى الماء الأزرق الصافى الذى يترجرج بين الصخور.

قال: كيف تضع هذا الجمبرى المسكين فى السنارة؟
قلت: ابدأ من الذيل وستجد الرأس على سن السنارة.. السمكة هدفها الرأس قال ابن خلدون: الأم كالسمك تفسد من رؤسها - هذا كلام خطير يا بشروش.

الرئيس مصطفى

جلست بجانب الرئيس "مصطفى" على اللوح الخشبي العريض، أمسكت بالمجداف، الصمت يلف الجميع، جلس "رجب" فى مقدمة "الفلوكة" مستنداً إلى كومة الغزل وقد وضع كفه فوق جبينه ينظر فى السماء، يرقب الطائرات، و"العباسي" خلفنا يهتز فى رتابة كمن يركب جملاً .

ما إن اقتربنا من البرحتى قفز الرئيس "مصطفى" إلى الماء يدفع معنا المركب فوق الرمال البيضاء .

نفس الرمل .. نفس الماء، لماذا أرتعد كلما لمست قدمى هذه الأرض؟
- إيه يا رجل، أنا أنادى عليك، أترك الشعر الآن، لا وقت لدينا، انتبه جيداً، قال "رجب" وهو يشد خطوته: سأذهب فى هذا الاتجاه ومعى "العباسي"، وأنت والرئيس "مصطفى" فى هذا الاتجاه، الأوامر أن نعود بسرعة

بدأوا يرصدون هذه الفلايك الصغيرة فى طلعاتها المتكررة، فى

البداية لم تكن الطائرات تلتفت إلينا، بالأمس حومت فوقنا واحدة،
أخذت وضع الهجوم ثم أطلقت رصاصها، سقطت دفعة "الفيكرز"
جميعها فى الماء.

قال الرئيس "مصطفى": ربما أراد هذا الكلب أن يتسلى
قال الضابط: أو ربما بدءوا ينتبهون إليكم كونوا على حذر
- ابن من من الصيادين يا بنى ؟
- ابنك يا ريس "مصطفى"

- صحيح ابن من أنا لم أرك فى البحر من قبل
- أبى خلوانى يا ريس "مصطفى"
- سبحان الله ظننتك واحدا منا

- أنا منكم يا ريس "مصطفى" خالى له مركب كبيرة فى البحيرة
كان الأحياء يدفنون الموتى ويجمعون سلاحهم ومتعلقاتهم، حتى
لو بقى واحد فقط، فإنه يقوم بالأمر .

لا يتكلمون، فقط يومثون برؤوسهم المشعة، وجوههم التى
حرقها الشمس جامدة متشابهة، لم أر أبداً فرحة النجاة فى أى وجه..
بعد أن يأكل ويشرب يجلس مطأطئ الرأس ينظر فى قاع القارب،
ويظل صامتا حتى نصل.

مركز التجمع مدرسة "الفتح الابتدائية" فيها أخواتنا: "سعاد

الخميسي" و"أحلام الألفي" واختها فاتن و"فاطمة" و"زينب" ..
فتيات فى عمر الزهور يقمن بتنظيفهم وتضميد جراحهم، ويستبدلون
ملابسهم .. بعد يومين أو ثلاثة تعود لهم وجوههم، يسافرون إلى قراهم
ومدنهم .

قالت أختى "سعاد": صدقنى يا أخى لا أتذكر أى وجه منهم،
أراكم فيهم أنت و"العباسي" و"رجب" و"عبد السلام الألفي" .. لو
رأيت واحداً منهم فى الطريق لن أعرفه .

قلت لها: لقد رأيت نفسى فى كل شخص دفنته فى سيناء .. إننى
ميت يسير على قدمين، ولن تهدأ روحى حتى أثار لشهادتنا، أو أعود
إلى قبرى، هناك فى سيناء .

منكفئاً على وجهه فى الرمل، دمه لا يزال طازجا

- قال رجب: أين سلاحه؟

- ليس معه سلاح

- السلاح موجود ابحثوا فى المنطقة .. لا توجد سوى آثار قدميه

نظرت إليه، قبضته اليمنى منقبضة فى تشنج، قريبا من وجهه
الذى اختفى نصفه الأيسر فى الرمال، يده اليسرى مختفية بكاملها
تحت جسده الضخم، عندما "عدلناه" وجدنا يسراه تحتضن السلاح فى
صدره، فى وقت واحد نظرنا إلى قبضته اليمنى .

- قلت : نأخذ السلاح وندفنه كما هو

- قال "العباسي" : نرى ما فى قبضته أولا .. ربما نجد شيئا هاما

أخرجنا الصورة الصغيرة بحذر، من بين أصابعه المتشنجة .. فتاة ريفية شابة، آخر شيء رآه قبل نومته الأخيرة، لا أتذكر من بكى أولا، انفجرنا مرة واحدة وفى وقت واحد، ربما رأى كل واحد منا نفسه فى هذا المسجى، رأى حبيبته، وطنه فى هذه الورقة الصغيرة، احتواها فى قبضته الكبيرة، يحميها من الموت، من الأعداء، رسالة واضحة، وطنكم عرضكم، خذوا بثأري، لا تقعوا فى هذه الورطة مرة أخرى .

ما إن استقرت المركب فوق سطح الماء، فى الغاطس خلف الأمواج حتى صرخ "رجب" : هذه الطائرة ستطلق علينا

دارت الطائرة فوقنا دورة كاملة قبل أن تأخذ وضع الهجوم .. انفجر الدم الأحمر فى وجهى مثل نافورة حمراء، احتضن "العباسي" الرئيس "مصطفى"، ربط ذراعه تحت الإبط بحبل قديم من حبال الصيد، ارتعشت عندما لمست كفى الكف المبتورة، التقطها من بين أقدامى، خلع "رجب" قميصه لفها فيه واحتضنها وهو يرتجف كطائر فزع، الوحيد الذى ظل مطمئنا وهادئا هو الرئيس "مصطفى" كان يطمئنا ويهدئ من روعنا ويشجعنى وقد جلست بين المجدافين.

إنها النار التى أحرقتنى عند شاطئ البحيرة الجنوبى تحرق الآن

كل ذرة فى بدنني ، بدأت بذراعى ثم اشتملت جسدى كله ، اللحظة
المرجة التى عزفتها فى الملاحظات ، أين لسع النار ؟
.. توقف الإحساس بالألم إلا من تلك الرجفة عند ملامسة الكف
الطرية المنخفضة ..
كفاى .. مضغتان من اللحم والدم .. دمي ودم الرئيس مصطفى .

جرب.. تعرف

فى البداية اقتررب عدد كتيبة الجامعيين من المائة، مع الوقت بدأت
فى التقلص، الأعلى صوتا والأكثر تشنجا هو الأسرع فى تسليم
البطاطين.

من حق أى فرد أن يسلم سلاحه فى "السلاحليك" ويأخذ تصريحاً
لساعات، يزور أهله ويعود، إذا سلم البطاطين مع السلاح نضحك،
نعلم انه تصريح بلا عودة.

قلت لصديقى الضابط: لماذا لا تأخذ تصريحاً وتزور أهلك؟

قال: بعد النصر.. الحرب لم تنته يا أخى

ركبنا اللنش الصغير، عبرنا القناة إلى بورسعيد، سرنا فى الشوارع
الخالية، يتجمع الناس أمام محل "أبو سمرة" لشراء الطعمية ولتبادل
الأحاديث والأخبار.

قال واحد بصوت عال: نفسى أعرف الجاسوس "ابن الكلب"،
نحرقه كما فعلنا فى سنته وخمسين.

تشن الإذاعة الإسرائيلية حربها النفسية على المدينة، ذكروا محل
"أبو سمرة" وبعض ما يتكلم فيه الناس.

قالت أمى: قلبى كان "حاسس" أنك ستأتى اليوم، وجهها أبيض
يشع بالفرح، رفض الضابط فى البداية أن يضع اللحم الأبيض الشهى
فى فمه قال: ما هذا الذى تأكلونه؟ .. كابوريا الحجر الخضراء بشكلها
البشع ورائحتها التى تخطف الروح

. - لا تحكم على الأشياء من ظاهرها .. جرب تعرف

حملنا طعاما كثيرا ونحن عائدین إلى الترسانة.

قال الضابط: هل تعلم أن أمك تشبه أمى تماما.. نفس الشكل
والكلام، حينما قبلتنى أحسست أننى فى حضن أمى، ثم صمت
وقال: لقد وعدتها أن أعود بالنصر.. تخرج الصوت ثم انقطع، سرنا
صامتین، وجدنا اللش فى انتظارنا، تحركنا نحو الضفة الأخرى،
التوتر يسود المكان، وجوه غريبة نراها لأول مرة ترافقنا ونحن متجهين
إلى السلاحليک.

قال الضابط: الأسطول الروسى فى القناة ستراه من موقعك.

قبل أيام أغرقت زوارق الطوربيد المصرية المدمرة الإسرائيلية
"إيلات"، كانت مياهنا الإقليمية فى تلك الأيام مسرحا لعمليات
حربية ناجحة، الضفادع البشرية المصرية وصلت إلى أرض العدو..

بدأت حرب الاستنزاف، بقدر ما نسترد من معنوياتنا يفقد العدو من ثقته بنفسه .

قلت فى غضب: هل جاؤوا لاحتلالنا

قال: جاؤا لمساعدتنا

قلت: جاؤوا لتهدة الموقف وتكتيف ايدينا.. لا فرق بين روسيا وأمريكا، لن تتحرر الأرض إلا بسواعد أبنائها.. أمريكا تزود إسرائيل بالسلاح، روسيا تزودهم بالبشر، وهذا فى رأى أخطر من السلاح. القطع الحربية الروسية حوائط رمادية عالية تسد النور أمامي، تجثم بثقلها على قلبى .

حينما انطلقت الرصاصات، قامت الدنيا ولم تقعد، الكشافات حولت موقعى إلى نهار، قنابل الأعماق تمزق المياه من حولى . جاء الضابط مسرعا قال: بُل فى ماسورة البندقية، البول يزيل اثر البارود، الوجوه الغريبة تتشمم سلاحي، يذهبون ثم يعودون. قال كبيرهم: انطلقت الرصاصات من هنا، نحن نعرف، هل رأيت أحدا من زملائك قريبا من هذا المكان؟

فيما بعد قالوا: قل لنا من أشار عليك أن تبول فى البندقية ؟

قلت: ما هذا "القرف" أبول فى بندقيتى !! ولماذا؟

ظلت علاقتى بصديقى عادية حتى لا نلقت الأنظار.

قلت: ليس لى أخ من أبى وأمي، أنت أخى روحا ودما
ضحك وقال: أخى الصغير صورة منك شكلا وأفكارا
أصر زميلى "سامى الطباخ" أن يستضيفنى فى منزله فى القناطر ..
لم أوافق إلا بعد أن قال: سترى استراحة الرئيس وربما تراه شخصيا .
بيت "سامى" فى الضفة الأخرى للنيل، تماما فى مواجهة استراحة
"جمال عبد الناصر" .. وضعنا الكتب ثم خرجنا نتمشى فوق
"القناطر" التى بناها "محمد علي"، الحجر القديم والبوابات الحديدية
وآلاتها الصدئة، والليل والهواء العليل، والنيل ينساب تحتنا قويا
وصامتا وحزيننا، نغنى أغانى "أم كلثوم" بصوت واحد حتى وصلنا
الضفة الأخرى .

- مساء الخير يا "سامى" تفضل .. صاح واحد من الحرس
جلسنا وشربنا الشاي، ونحن عائدین لم نتبادل كلمة واحدة،
قطعنا القناطر الخيرية صامتین .. هنا يعيش "جمال عبد الناصر"،
وهؤلاء حرسه يرونه ويتكلمون معه ويعرفون "سامى الطباخ" ..
يرحبون به وبضيوفه، يا بختك يا سامى .

فى هذا الوقت بالذات رأيت على رأس الجسر

- البشر وش؟

- حضرة الضابط ؟ أين أنت يا رجل ؟ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

مكانك فى الجبهة

- اطمئن مصر كلها جبهة .. كل الأماكن تؤدي إلى سيناء
وجهه مشرق وسعيد .. عرفت فيما بعد، قريبا من هذا المكان،
تدرب الجيش المصري على عبور القناة .

الهجرة

قال عم "مسعد البلاسي": إقامتى مؤقتة، المدينة تهجر إجباريا، بدءوا بأصحاب المهن الحرة، لو خيرت بين الموت ومغادرة بورسعيد لاخترت الموت.. ولكنها الأوامر المشددة.

قال عم "عبد التواب": أنتم على راسى، ولكن ما الهدف من تهجير الناس بهذا الشكل السريع؟

- هذه المدن فى مرمى المدافع الإسرائيلية.. لا يريدون أن نصبح رهينة فى أيدي اليهود، سأشتري بيتاً فى المنطقة، حاول أن تساعدنى.. إقامتى عندكم مؤقتة.

تكدست العائلة كلها فى الحجرة الكبيرة المطلة على الشارع، بينها وبين حجرتى حجرة "أحمد شحاتة" الصغيرة، شباك حجرتى يطل على المطبخ وهى الأقرب إلى الحمام وأنا بطبيعتى عاشق للعزلة والاكتفاء، ولكن كيف تعزل وبجانبك هذا الرجل المعجوز الرائع؟ كان عم "مسعد البلاسي" وقبل أن يطعن فى السن ويخرج إلى

المعاش مديراً لمخازن شركة تعمل فى بيع الأدوات الصحية، يملكها واحد من الأجانب الذين كانوا يسيطرون على اقتصاد المدينة.

رجل واع ذكى يعمل حساب المستقبل، يسكن فى "بورسعيد" وله بيت كبير فى "بورفؤاد"، اشتراه بثمن بخس وتركه للزمن، رجل عجوز مستور.

انقلب حالنا رأساً على عقب، أصبحنا مقيدين، فقدنا حريتنا وانطلاقنا،

قال "عرنوس" وهو يطبخ الطعام يوم الجمعة: ما الذى يجبركم على ذلك اتركوا لهم الشقة، سأخذ "البشروش" معى فى "اسبرنج" و "شحاتة" سيجد ألفاً من أصحابه الأوساخ.

"إسبرنج" عمارة شهيرة فى ميدان الجيزة تطل على النيل يسكن "عرنوس" على سطوحها فى حجرة صغيرة جداً وبائسة، تقع مباشرة تحت الإعلان الضخم، الزجاجاة العملاقة تحتها كلمة "اسبرنج" بالأحرف "اللاتينية" التى ترقص فى النيون.

يضربه "شحاتة" على يده فتسقط قطعة اللحم فى المرق الساخن - أريد أن أعرف هل استوى اللحم؟

- هذه رابع قطعة، سنأكلها نيئة، هل استرحت؟

عرفت "شحاتة" عن طريق "عرنوس" كانا زميلى دراسة، يعمل

"عرنوس" فى شركة الكهرباء و "شحاتة" فى "المقاولون العرب".
أبو "شحاتة" عالم أزهرى صاحب مدارس "الشيخ شحاتة" هى
أقرب إلى "الكتاتيب"، عرفت فيما بعد أنهم سكان بيت "طه الصغير"
قبل أن يصبح عمارة يافعة تطل على بيتنا فى حارة "البكري"، وأن
الديوك الرومية التى كنت أعاكسها من سطوحنا هى ديوكهم، وأن
"شحاتة" يعرف بنات شارعنا ربما أكثر منى، حتى بعد أن رحلوا عن
المنطقة، ينطبق عليه المثل الشهير "يخرج من ظهر العالم فاسد".

فى أول إجازة صيفية قلت "لشحاتة": لك كل فتيات الشارع ما
عدا صاحبة الشباك المفتوح.. تفتحه عندما ترانى فوق السطوح أذاكر،
وتغلقه بعد نزولي، وظل هذا الاتفاق غير المكتوب مستمرا طوال العام،
طالبة فى معهد المعلمات تركب "الأتوبيس" وأركب أنا "التروলلى"
باص"، بين محطتى ومحطتها شارع عريض، أحيانا تتعمد التأخير
وأظل أنتظر حتى ترحل.

لم أتكلم معها ولا كلمة واحدة، عام كامل ولم أجرو حتى على
مجرد الابتسام، قلبى ليس معى.. قلبى أسير فى حارة "البكري".

عدت من الإجازة صعدت متلهفاً إلى السطوح وكان الشباك
مفتوحا، لحظات وأغلق بشدة فى وجهى.

- ماذا حدث يا "شحاتة"؟

يضحك "شحاتة" فى خبث ويقول: لا شىء
حكى لى أخيراً قال: قلت لها لا أمل فى "البشروش" إنه مجنون
بجارتة فى بورسعيد، تمالك نفسه قليلاً ثم قال: سحرتنى هذه الفتاة..
حب حقيقى يا صديقى، ذهبت لأبيها ووافق، هى لم توافق، فعلت
المستحيل حتى كلمتنى قالت: لا أريد الزواج منك ولا من صديقك،
اذهبى إلى الجحيم .
مرض "شحاتة" وكنا نضحك عليه أنا "وعرنوس"، لم نصدق أنه
واقع فى الحب فعلاً، حينما حضرت زفافه فيما بعد كانت، زوجته
صورة كاملة لفتاة إمبابة .
قال: أرجوك لا تخبرها بشىء، دعها على عماها

الهجرة هذا الكائن المتوحش الذى يعتصر القلب

حملت شارعى معى فى كل شارع غريب، حملته بحجارته
وناسه، شريطاً "سينمائياً" وقف فجأة عند موضع ما، عند لحظة ما،
زماناً متحجراً يتأبى على الاتصال، فجوة أبدية بين الوهم والوهم، بين
الشيء والظل، عرفت أننى سأعيش مشروخاً وإلى الأبد.
تعرف أنها تملكنى، وأعرف أننى عالق فى حبها، وظل عقلى
حاضراً ورافضاً

قالت: تذكر أنت مدرس لغة "إنجليزية" .. قلت ذلك لزملائي،
أرجوك لا تخرجنى أمامهم .. عرفت ساعتها أى شقاء قادم تحت
غمامتها، وددت لو طعنت قلبى وألقيته للكلاب .. الهزيمة المركزية فى
حياتي، منها تفرعت كل هزائمي.

أتصرف مع الناس بوصفهم نموذجاً مكرراً لأسرتى الصغيرة،
الرجال مثل أبى والنساء مثل أمى والفتيات مثل أخواتي، بنيت
خطتى على هذه المعطيات الأولية .. توقعت نتائج باهرة لم أحققها

أبداءً، وحينما أدركت كان الوقت قد فات .

قال كمونة: أنت محسود يا رجل، انظر حواليك.. كلنا فقدنا

حلمنا الأول إلا أنت، إذا لم يكن ذلك هو الانتصار فماذا يكون؟

- أنت لا تعرف يا كمونة.. حاولت السباحة على الرمل، وحاولت

المشى على الماء، وحاربت حيث لا تنفع الحرب .

13	الجزء الأول: الوطن الجميل
15	الخواجة جورجى
21	هيليا ليصا هيليا
27	الوطن الجميل
31	الشاطئ الجنوبي
35	الصفة الأخرى
39	شارع كسرى
43	بلاعة عم السعيد
47	قطار الدلتا
51	عش الدبابير
55	سالمه يا سلامة
57	ثمن الحرية
59	بين موت الحياة.. وحياة الموت
63	كمونة
65	الكنال الداخلى
68	عزبة فاروق
73	الحرقه.. والغرقه
77	كابوريا
81	ابتعد عن البنات.. يا ولد
85	أم الدسوقي
87	جنة الفقراء
89	أبو العربى
95	ابتعد عن السور
97	حارة البكري
103	يا عسكرى يا أبو بندقية
105	تحيا مصر
107	جدتى شفيقة
109	سيد هتلر
111	سينما "ريالتو"
115	السراى الصفراء
119	كليوباترا
121	الأستاذ محرز
123	أولاد الأبالسة
125	وات تايم

129.....	السيد حنجل
133.....	معسكر الجلاء
137.....	الجزء الثاني: الفرائس
139.....	جدلية الحياة والموت
143.....	المغربي
147.....	النوة
151.....	صيد البحر
153.....	جوبيا
157.....	أبو يوسف
159.....	يوسف الغيطاني
163.....	الأسكي
167.....	سينما الأهلى
171.....	القطب
175.....	نوح الحمام
179.....	باندونج
183.....	فرحة
185.....	صيف حار
189.....	كلوت بك
195.....	غريب الدقناوي
199.....	لوكاندة السعادة
203.....	مدينة السعادة
207.....	أبله أزهار
211.....	شريفة
215.....	عبد الحليم شحاتة
219.....	معجون شريفة
223.....	سندخل تل أبيب
227.....	ماء ميت
231.....	سأخبر جمال عبد الناص
235.....	حسين الضبع
241.....	رجب
245.....	الرئيس مصطفى
251.....	جرب.. تعرف
257.....	الهجرة
261.....	الهجرة هذا الكائن المتوحش الذى يعتصر القلب



عرضت بعض ما كتبت على الروائي الكبير خيرى شلبي: قلت له هذه بروفة إلى أن أجد اللغة المناسبة. قال الرواية تصنع لغتها طرحت كل ما عرفت من نظريات وواصلت الكتابة. كتبت عما أظن أنني أعرف. كتبت عن نفسي وعن بورسعيد. كتبت شيئاً يشبه السيرة الذاتية ولا يشبه كتابة أحد. لا "داريل" في رباعيته ولا "إدوار الخراط" في أسكندريته. في الجزء الأول "البشروش" كتبت بورسعيد أيام 56 من عيني طفل وفي الجزء الثاني "الفرائس" زصدت هزيمة 67. العمر أكملت ما في يدي من أوراق البشروش

الثنى : جنيهان

Bibliotheca Alexandrina



1209456

لجاليات

ادبيات

www.gocp.gov.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg
www.atlas.gov.eg
www.gocp.gov.eg/thakafa
www.misrelmahrosa.gov.eg
www.studiesresesrch.gov.eg
www.masrahna.gov.eg